الدكتور يوسف القرضاوي

الرَّسُولُ وَالعِلْمُ

دار الصّحوة

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

الدكتور يوسف القرضاوي

الرسول والعلم

دار الصحوة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

اما بعد فلم تعرف البشرية ديناً مثلَ الإسلام عُني بالعلم أبلغ العناية وأتمها: دعوة إليه وترغيباً فيه، وتعظيماً لقدره، وتنويها بأهله، وحثاً على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبياناً لآدابه، وتوضيحاً لآثاره، وترهيباً من القعود عنه، أو الازورار عن أصحابه، أو المخالفة لهدايته، أو الازدراء بأهله.

ومن درس الأديان السابقة على الإسلام، أو قرأ كتبها المقدسة، ازداد إيماناً بعظمة الإسلام في هذا الجانب.

إنك تقرأ «الأسفار المقدسة» في العهد القديم أو الجديد، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات «العقل» أو «الفكر» أو «النظر» أو «البرهان» أو «العلم» أو «الحكمة» أو ما اشتق منها، أو تفرع عنها، أو كان له قرابة بها.

فإذا قرأت القرآن وجدت فيه ـ كما يذكر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ـ ما يلي:

كلمة «علم» نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرة، أما مشتقاتها: علم ويعلم ويعلمون وعلم ويعلم وعليم وعلام... الخ. فقد ذكرت مئات ومئات من المرات.

كلمة «عقل» لم ترد اسماً أو مصدراً في القرآن، وورد بديلا عنها كلمة «الألباب» وتكررت ١٦ مرة ست عشرة مرة، وكلمة «النُّهى» بمعنى العقول أيضا مرتين.

أما مشتقات « عقل » فقد تكررت في القرآن ٤٩ تسعاً وأربعين مرة .
وكذلك مشتقات « فكر » ١٨ ثماني عشرة مرة .
ومشتقات « فقه » ٢١ إحدى وعشرين مرة .
وكلمة « حكمة » ٢٠ عشرين مرة .
وكلمة « برهان » مضافة وغير مضافة ٧ سبع مرات .

وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر مثل « انظروا » و« ينظروا » ونحوها . وإذا طالعت كتب الحديث النبوي ، وجدت في جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب ـ أو بتعبير ذلك العصر : الكتب ـ كتاباً حافلاً موضوعه « العلم » .

ففي « الجامع الصحيح » للإمام محمد بن إسماعيل البخاري نجد ـ بعد أحاديث بدء الوحي ، وكتاب الإيمان ـ كتاب العلم ، وقد اشتمل كما يقول الحافظ ابنُ حجر في « الفتح » من الأحاديث المرفوعة على مئة حديث وحديثين ، منها ستة عَشر حديثاً مكرراً ، وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومَنْ بعدَهم اثنان وعشرون أثراً .

وفي صحيح مسلم وباقي الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة) كتاب أو أبواب للعلم ، تقصر أو تطول .

وحسبنا أن نذكر هنا أن كتاباً مثل « الفتح الرباني » في ترتيب مسند الإمام أحمد قد ضم في كتاب العلم (٨١) واحداً وثمانين حديثاً .

وإن كتاب « العلم » في « مجمع الزوائد » للحافظ نور الدين الهيثمي قد بلغ ٨٤ صفحة في كل صفحة عدد من الأحاديث .

وفي « المستدرك » للحاكم النيسابوري بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحة .
وإن كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري جمع في كتاب العلم ١٤٠ حديثاً .

وإن كتاب العلم من « جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد

للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثاً.

ولا يخفى أن قدراً كبيراً من الأحاديث في كل كتاب من هذه مكرر مع أحاديث الكتب الأخرى.

ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث في هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بالعلم.

فالواقع أن هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم، ولكنها وضعت في مظان أخرى من أبواب الكتاب، حيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة، ويستفاد منه أكثر من حكم.

فالحديث الذي استفدنا منه اهتمام الرسول بالإحصاء الكتابي لعدد الرجال من المسلمين هو في صحيحي البخاري ومسلم ولم يذكر في كتاب العلم.

والحديث الذي دل على إقرار التجربة ونتائجها في شؤون الحياة الدنيا، ووكل للناس أمر دنياهم، هو في صحيح مسلم وغيره، ولكن لم يوضع في كتاب العلم.

والحديث الذي دل على محاربة الرسول للأمية بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى، لم يذكره من ذكروه في أبواب العلم.

والأحاديث التي أعلنت الحرب على الخرافة والشعوذة لم تذكر فى كتاب العلم.

والأحاديث التي عنيت بما يتعلق بالطب والتداوي، ونحوها لم تذكر في كتاب العلم بل في كتاب الطب أو التداوي.

وهكذا نجد كثيراً مما يتصل بالعلم متناثراً في أبواب كتب الحديث تحت عناوين شتى... وما على البحاث البصير المطلع إلا أن يلتقطها من مظانها القريبة والبعيدة، ويجمع شتاتها، ويصنفها التصنيف الذي يوضح فكرته، ويحقق هدفه.

وهذا هو عملنا في هذا البحث «الرسول وموقفه من العلم» أن نجمع

الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر، وبخاصة الأصلية منها، ودراستها دراسة علمية موضوعية، لبيان موقف الرسول ﷺ في السنة والسيرة من « العلم » بمفهومه العام، أو بمفهومه الحديث.

وإنما قلت « الأحاديث المقبولة »، لأن الأحاديث الموضوعة، والتي لا أصل لها، والضعيفة جداً، لا يجوز الاستشهاد بها عند أحد من العلماء، ولو كان ذلك في فضائل الأعمال.

أما الأحاديث الضعيفة فقط، فقد أجاز جمهوُر العلماء الاستفادة منها في فضائل الأعمال أي في الأمور التي لا يترتب عليها حكم، ولا يُؤخذ منها حلال ولا حرام.

ولهذا نرى الحافظ الفقيه ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » يذكر كثيراً من الأحاديث الضعيفة ثم يعقب عليها بمثل قوله: « والفضائل تروى عن كل أحد، والحجة من جهة الإسناد إنما تتقصى في الأحكام، وفي الحلال وفي الحرام ».

وهذه الفكرة جعلت الأحاديث الضعيفة تزحف على الأحاديث الصحاح والحسان وتطغى عليها. هذا مع عدم الحاجة إليها، لأن في الأحاديث المقبولة ما يغني عنها.

ولم يتقيد الأكثرون بما اشترطه أئمة المحدثين عند الاستشهاد بالحديث الضعيف. وهو ألا يكون ضعيفا جداً، وأن يندرج تحت أصل كلي ثابت، وألا يعتقد ثبوته بل الاحتياط.

على أننا حين نريد أن نجلي موقف الإسلام، أو موقف الرسول من أمر من الأمور، فلا بد أن نعتمد على الصحيح والحسن، لأن الضعيف لا يتبين منه موقف، كما لا يُبنى عليه حكم.

ولهذا كان عملنا في هذا البحث مزدوجاً، وهو تمحيص ما يستشهد به من الأحاديث وتحقيقها وبيان درجتها، ثم يأتي استنباط الحكم أو المعنى المراد

منها .

فالواجب أولاً إثبات النص وتوثيقه ، ثم استخراج الدلالة منه .

ومن الباحثين من يحسب أنه يكفيه في التوثيق العلمي أن يسند الحديث أو النص المنقول إلى كتاب معروف مبيناً الجزء والصفحة والطبعة ، معتبراً أن ذلك هو غاية التوثيق ، ونهاية التحقيق والتدقيق ، كما يفعل الكثيرون ممن ينقلون عن كتب التفسير ، أو التصوف ، أو الفقه ، أو حتى كتب الحديث التي لم يلتزم مخرجوها الصحة فيما يروونه منها ، فلا يكفي هنا لقبول الحديث مجرد نقله من كتاب وصحة نسبته إليه .

ومثل هذا يقع فيه الذين يكتبون التاريخ ، ومبلغ التحقيق عندهم نسبة ما ينقلون إلى الطبري أو ابن الأثير أو غيرهما ـ مع أن في هذه الكتب المقبول والمردود ، والغث والسمين .

ولقد لاحظت انتشار عدد كبير من الأحاديث الواهية عند كثير من المتحدثين عن العلم أو الكاتبين فيه ، وذلك لاعتماد الكثيرين منهم على النقل من الكتب التي تذكر في كل موضوع ـ ما تجده من حديث دون اشتراط صحته . ولا بيان درجته .

وأظهر مثال لذلك هو « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي ، الذي يرجع إليه الكثيرون من الوعاظ والكتاب ، فقد ذكر في فضيلة « العلم » و « التعلم » و « التعليم » نحو ٥٥ خمسة وخمسين حديثاً ١٣ ثلاثة عشر منها صحيح أو حسن ، والباقي ضعيف ، رغم اشتهاره جداً على الألسن والأقلام .

وأحمد الله أني لم احتج في هذا البحث إلى الضعيف المردود ، فقد أغناني الله بالصحيح والحسن ، وهو موفور غير قليل ، وإذا ذكرت حديثاً على غير هذا الشرط ، فذلك في الغالب ولمجرد الاستئناس ، ومع بيان درجته ، فليس هو العمدة .

وإنما اقتصرت على بيان موقف السنة من العلم ، لأن بيان موقف القرآن من العلم يحتاج إلى بحث آخر ، لعلي أوفق في إخراجه في سلسلة « التفسير

الموضوعي للقرآن» فعسى أن يجد القارىء الكريم ما قصدت إليه واضحاً في هذه الصحائف، ويرى فيها نهج الإسلام، وهدي الرسول الكريم بيناً واضح المعالم.

هذا وقد قسمت البحث إلى خمسة أقسام:ـ

الاول: في بيان منزلة العلم والعلماء.

الثاني: موقف الرسول من العلم التجريبي.

الثالث: في أخلاقيات العلم.

الرابع: في التعلم وآدابه.

الخامس: في التعليم ومبادئه وقيمه.

فلنشرع في بيانها ـ وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون وبه التوفيق.

يوسف القرضاوي

مَنزلة العِلم وَالعُلمَاء في ضَوءِ السّنّة

تكاثرت أحاديث النبي ﷺ .. وتتابعت - بعد آيات القرآن الكريم - في بيان فضل العلم ومنزلة العلماء عند الله وعند الناس، في الدنيا والآخرة، ورفعت العلماء مكاناً علياً، لا يسعى إليه على قدم، ولا يُطار له على جناح إلا بوساطة العلم.

ولا ريب أن أولى العلوم بذلك هو علم الدين، الذي به يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، ويهتدي إلى غايته، ويكتشف طريقه، ويعلم ماله وما عليه، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدي الناس إلى حق، أو تقربهم من خير، أو تحقق لهم مصلحة، أو تدرأ عنهم مفسدة.

يقول ﷺ: «من يُرد الله به خيراً، يُفقهه في الدين[1]».

ويقول: «مَنْ سلك طريقاً يلتمسُ فيه علماً، سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكةُ، ونزلت عليهم السكينةُ، وغشيتهم الرحمةُ، وذكرهم الله فيمن عنده[2]».

ويقول: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة

(١) رواه البخاري ومسلم، وابن ماجة من حديث معاوية، «الترغيب» للمنذري حديث رقم ١٠٠ - من الطبعة التي حققها محمد محيي الدين عبد الحميد

(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال صحيح على شرطهما «ترغيب» حديث ٥٠.

الأنبياء، إن الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر[1]».

فهذه الأحاديث تدل على فضل العلم، وبخاصة العلم بالدين، أو على حد تعبير الحديث: الفقه في الدين. والواقع أن الفقه في الدين أخص وأعمق من مجرد العلم بالدين، فالعلم معرفة بالظاهر فحسب، والفقه معرفة بالظاهر والباطن معاً، والعلم يتصل أكثر ما يتصل بالعقل وحده، والفقه بالعقل والقلب جميعاً.

ولهذا فإن مجرد العلم بالأحكام الشرعية الجزئية كأحكام الطهارة والنجاسة والرضاع والطلاق والبيع والشراء كما هو مدلول الفقه في اصطلاح الخلف، لا ينشئ الفقه المراد في الحديث، والذي هو دليل على إرادة الله الخير بصاحبه.

وحسب هذا العلم فضلاً أن مجالسه تحفها ملائكة الله، وتنزل عليها السكينةُ، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في الملأ الأعلى.

وهذه الملائكة التي تحف مجالس العلم تضع أجنحتها لطالبيه، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل... والحف حفظ وحماية وصيانة.

فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له، وحبها إياه، وحمايتها له، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً.

هذه الأحاديث ومثلها كثير وكثير بجوار ما جاء في القرآن من آيات غزيرة وفيرة، جعلت أصحاب رسول الله - ﷺ - ومَنْ تبعهم بإحسان على مر القرون، يشيدون بشأن العلم، وينوهون بقدر العلماء، تحريضاً على طلب العلم والزيادة منه، وتحذيراً من الجهل وما يجره على أهله من شؤم في الدنيا والآخرة.

يقول عمر: أيها الناسُ، عليكم بطلب العلم، فإن لله رداء محبة، فمن طلب

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه والبيهقي، والحاكم وصححه وحسنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده لكن له شواهد يتقوى بها ذكره الحافظ في الفتح ١/١٦٩ ط الحلبي، ونقل الشيخ البنا في «الفتح الرباني» ١/١٥٠ عن صاحب «التنقيح» أن رجال أحمد رجال الحسن، كما حسن إسناد الحاكم ونسبه أيضاً إلى النسائي وأبي يعلى والطبراني في الكبير. قال: وصحح البخاري بعض طرقه.

باباً من العلم، ردّاه الله بردائه ذاك[١] .

وسأل رجل ابن عباس عن الجهاد فقال له: ألا أدلُّك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبني مسجداً تعلم فيه القرآن، وسُنن النبي ﷺ، والفقه في الدين[٢]

وقال ابن مسعود: نعم المجلس مجلسٌ تُنشر فيه الحكمة، وتُنشر فيه الرحمة[٣] . يعني مجلس العلم.

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشيةٌ، وطلَبه عبادة، ومدارستَه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقة، وبذلـه لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحبُ في الخلوة، والدليل على الدين، والنصير على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند القرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفعُ الله به أقواماً، فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير تُقتفى آثارهم، وتُرمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البر وأنعامه، والسماءُ ونجومها . . . إلى أن قال:ـ

به يُطاع الله، وبه يُعبد، وبه يُوحد، وبه يُمجد، وبه يتورع. وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعُه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء[٤] .

وقال الحسن: لولا العلماءُ، لصار الناس مثل البهائم. أي أنهم بالعلم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

وقال يحي بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ـ ﷺ ـ من آبائهم وأمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم

---

(١) «جامع بيان العلم» لابن عبدالبر ١/٧٠
(٢) نفسه ٧٣ . ١٤
(٣) نفسه ٦٠
(٤) رواه ابن عبد البر، وأبو نعيم، والخطيب موقوفاً على معاذ، ورفعه بعضهم ولا يصح. قال ابن القيم. وحسبه أن يصل إلى معاذ.

يحفظونهم من نار الآخرة.

وسئل ابنُ المبارك: من الناسُ؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد.

قال الغزالي: ولم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم. فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه (جسمه) فان الجمل أقوى منه، ولا بعظمه، فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته، فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله، فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع، فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم[1].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حاجة الإنسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب.

العلم دليل الإيمان:

والعلم في نظر الإسلام ليس مقابلاً للإيمان، فضلاً عن أن يكون معادياً له كما شاعت هذه الفكرة في أوروبا في القرون الوسطى، حين وقفت الكنيسة في تلك العصور تؤيد الخرافة، وتحارب العلم، وتناصر الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحر والابتكار المبدع، وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام وإقطاعيين، وتقف في وجه الشعوب والفئات المسحوقة.

الإسلام لم يعرف هذا الصراع بين العلم والإيمان في تاريخه، لأن هذه الفكرة لا مجال لها في تعاليمه، لا نصاً ولا روحاً.

أما النصرانية، فتقوم أساساً على أن الإيمان قضية لا علاقة لها بالفكر، بل هي ضده، فهي لا تدخل في دائرة العقل والعلم، بل في نطاق الوجدان والقلب، وليس من شرط العقائد أن تكون مقبولة عقلاً، بل يحسن بها أن تكون شيئا فوق العقل، ولهذا كان من الشعارات المرفوعة عند النصارى

---

(١) الإحياء جـ ١/٧

« آمن ثم اعلم » . أو « اعتقد وأنت أعمى » .

وآخر يقول على لسان القسيس : « أغمض عينيك ثم اتبعني » .

وذلك لأن العقيدة النصرانية مؤسسة على قضايا يرفضها العقل المجرد، مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرع عنها، وما يلحق بها، حتى قال بعض فلاسفة النصارى في بعض معتقداتهم « اللامعقولة » وهو القديس (أوجستين) : أؤمن بهذا ، لأنه محال!

وهذا على عكس الإسلام الذي يرفض في بناء العقيدة « التقليد » و« التبعية » كقول من قالوا : (حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا) [المائدة : ١٠٤] أو (إنا أطعنا سادتَنا وكُبراءنا) [الأحزاب : ٦٧] أو « أنا مع الناس »[1] .

ويرفض أيضاً الظن، حيث لا يغني في شأن العقائد إلا العلم واليقين . ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم في الصلب بقوله : (مالهم به مِن علم إلا اتباع الظن) [النساء : ١٥٧] .

وقال في شأن المشركين وآلهتهم المزعومة : اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى : (إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتُم وآباؤكم ما أنزل الله بها مِن سلطان، إن يتّبعون إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ) [النجم : ٢٣] .

ويأبى القرآن إلا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادىء، ولأجل هذا صاح القرآن في أصحاب العقائد الباطلة : (قل : هاتُوا برهانكم إن كنتم صادقين) [البقرة : ١١١] .

ولا عجب أن تكررت في القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل (أفلا تعقلون) . (أفلا تتفكرون)، (أفلا ينظرون) . (أولم ينظروا) . (أولم يتفكروا) . (لقوم يعقلون) . (لقوم يعلمون) . (لقوم يتفكرون) .

وحسبك أن تقرأ هذه الدعوة القوية الصريحة إلى التفكير (قل إنما أعِظُكم

---

(١) كما في الحديث الذي رواه الترمذي : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : « أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت »

بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفُرادى ثم تتفكروا) [سبأ : ٤٦] .

وهذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد ـ رحمه الله ـ أن يخرج كتاباً عنوانه: «التفكير فريضة إسلامية» وهذا تعبير صحيح، فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا ، فرض عليهم أن يتفكروا .

فالعقيدة في الإسلام تقوم على العلم لا على التسليم الأعمى، يقول القرآن: (فاعلم أنه لا إله الا الله) [١٩/القتال] (اعلموا أن الله شديدُ العقاب وأن الله غفور رحيم) [المائدة:٩٨] (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أن الله غفور حليم) [البقرة: ٢٣٥] .

لم يخش القرآن عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتي بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلماته، لأن فكرة الإسلام: أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية، فالحق لا ينقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن، وتنافي الحقيقة الشك أو الوهم أو الافتراض .

ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذا بدا لنا في بعض الأحيان تناقض ظاهري، فلا بد ان يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح .

وهذا يقع كثيراً : أن يظن ما ليس من الدين ديناً ، وأن يحسب ما ليس من العلم علماً .

فليست كل أفهام أهل الدين ديناً ، كما أنه ليست كل نظريات اهل العلم علماً .

إن القرآن يعتبر العلم الحق داعية إلى الإيمان، ودليلا إليه .

قال تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقُّ من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) [الحج: ٥٤] .

فهذه المعاني الثلاثة مترتب بعضها على بعض .

فالعلم يتبعه الإيمان تبعية ترتيب بلا تعقيب، ليعلموا فيؤمنوا .

والإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات والخشوع لله تعالى، وهكذا يثمر العلم الإيمان، ويثمرُ الإيمان الاخبات والتواضع لله رب العالمين.

وفي آية أخرى بذكر العلم والإيمان متعاطفين جنباً إلى جنب كما قال تعالى: (وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) [الروم: ٥٦].

فالعلم والإيمان في الاية الكريمة مقترنان متعاطفان، وليسا من الاضداد التي إذا ثبت أحدهما، انتفى الآخر.

وإذا أردنا بالعلم: العلم بمفهومه الشائع اليوم، وهو المادي القائم على المشاهدة الحسية والتجربة ـ فلا ننكر أيضاً قيمة هذا العلم، وحاجة الناس إليه لأن العلم المادي مطلوب للإنسان ولا شك، ولكنه مطلوب طلب الوسائل لا طلب الغايات.

وهو يعين الإنسان على الحياة، وييسر له سبلها، ويختصر له الزمان، ويطوي له المكان: فيقرب البعيد، ويلين الحديد، ولكنه وحده لا يستطيع إسعاد البشر، كما لا يمكنه وحده ان يضبط سير البشر، ويقاوم أنانية الإنسان ونزعات نفسه الأمارة بالسوء.

ولهذا كان الإنسان في حاجة ماسة إلى «العلم الديني» الذي ينمي الإيمان ويحيي الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقي الإنسان شُحَّ نفسه، وطغيان غرائزه على عقله، وهواه على ضميره، وهذا هو الذي يعصم «العلم المادي» من الانحراف، ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان.

وقد ضرب لنا القرآن مثلاً بسليمان عليه السلام ـ الذي آتاه الله ملكا لم يؤته أحداً من بعده.

فقد أحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى مقره بالشام، قبل أن يرتد إليه طرفه، بفضل ذلك الذي وصفه القرآن بأنه: (عنده علم الكتاب) وهنا تجلى الإيمان حين أرجع سليمان الفضل إلى الله لا إلى نفسه: فلم يركبه

الغرور، أو يستبد به الطغيان (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم) [النمل: ٤٠].

وكذلك كان موقف ذي القرنين الذي فتح الفتوح غرباً وشرقا، وتوج حكمه بإقامة سدة العظيم، مستخدماً ما يَسَّرَهُ له علمُ عصره من وسائل وأدوات، فلما أتم البناء قال في تواضع المؤمنين: (هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً) [الكهف: ٩٨].

ألا إن العلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذي يفسح مجالاً للعلم، فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الذي يريده الإسلام أياً كان موضوعه، ومجال بحثه. يريده علماً في ظل الإيمان، وفي خدمة مثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن حين قال في أول آية نزلت (اقرأ باسم ربك الذي خلق) والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه، فإذا كان أول أمر إلهي نزل به القرآن، «القراءة» كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم في الإسلام.

ولكن القرآن لم يطلب «مطلق قراءة» وإنما طلب قراءة مقيدة بقيد خاص وهو أن تكون «باسم الله».

وإذا كانت القراءة باسم الله، فقد وجهت إلى الحق والخير والهداية، لأن الله تعالى هو مصدر هذا كله.

ولا غرو أن نشأ العلم في الإسلام في أحضان الدين، وان نشأت المدارس في صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع، بل سمي كل منها جامعاً: جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة . . . . . . وهكذا.

وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرس علوم الدين، وعلوم الدنيا معاً، وكان كثير من العلماء التجريبيين هم في نفس الوقت علماء دين، مثل القاضي ابن رشد الحفيد مؤلف «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن

ومؤلف « الكليات » في الطب .

ومثل الخوارزمي الذي ألف كتابه الفريد ـ الذي أسس به علم الجبر ، ليحل به مشكلات في الوصايا والمواريث من أبواب الفقه ! .



العلم دليل العمل :

والعلم في نظر الإسلام دليل للعمل أيضاً ، كما هو دليل للإيمان .

ترجم الإمام البخاري في جامعه الصحيح : « باب العلم قبل القول والعمل » ، وقال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما ، مصحح للنية المصححة للعمل ، فنبه المصنف (يعني البخاري) على ذلك ، حتى لا يسبق إلى الذهن ـ من قولهم : إن العلم لا ينفع إلا بالعمل ـ تهوين أمر العلم ، والتساهل في طلبه »[1] .

واستدل البخاري لما ذكره بجملة من الآيات والأحاديث منها : قوله تعالى : (فاعلم انه لا إله إلا الله واستغفر لِذَنْبِكَ وللمؤمنين والمؤمنات) [القتال : ١٩] .

فبدأ بالعلم ، وثنى بالعمل ، ورأس العلم معرفة الله تعالى وتوحيده . والخطاب وإن كان للنبي « ﷺ » ، فهو متناول لأمته .

وقال جل ذكره : (إنما يخشى اللّه من عباده العلماءُ) [فاطر : ٢٨] .

أي : إنما يخاف الله عز وجل ويقدره حق قدره ، من عرفه ، وعلم عظيم قدرته ، وسلطانه على خلقه ، نتيجة التأمل في أسرار كونه وشرعه ، وهم العلماء . وهذه الخشية هي التي تحفز على عمل الصالحات ، واجتناب السيئات .

وقال النبي ـ ﷺ ـ : « من يرد الله به خيراً بفقهه في الدين »[2] ، وذلك لأنه إذا فقه عمل ، وأحسن ما عمل . وأدنى درجات الفقيه ـ كما يقول الإمام

---

(١) « صحيح البخاري » بشرح فتح الباري . جـ ١٦٩/١ ط الحلبي .

(٢) المصدر السابق ١٦٩ ـ ١٧٠

الغزالي ـ أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا . وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه بريء بها من النفاق والرياء .[١]

يؤيد ذلك ما رواه زيد بن أسلم: أن النبي ﷺ دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ..) فقال الرجل: حسبي فقال الرجل، (أي: المعلم): يا رسول الله، أرأيت الرجل الذي أمرتني أن أعلمه لما بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) فقال: حسبي؟

فقال النبي ـ ﷺ ـ: « دعه فقد فقه »[٢] .

والسياق يدل على أن المعنى: قد استنار قلبه بنور الإيمان، والخشية من الله، يدل لذلك ما رواه المطلب بن عبد الله بن حنطب: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ في مجلس ـ ومعهم أعرابي جالس ـ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يـــره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فقال الأعرابي: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال: نعم فقال الأعرابي: واسوأتاه. ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان .[٣] .

فكلمة النبي ـ ﷺ ـ هنا: « لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان » في معنى قوله في الحديث السابق: « فقد فقه » .

وبهذا يتبين أن العلم شرط ضروري للعمل، لكي يصح ويستقيم على أمر الله، سواء كان هذا العمل عبادة لله، أم معاملة للناس .

روى سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد العزيز، قال: من عمل في غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .[٤]

وفي حديث معاذ بن جبل السابق في فضل العلم قال: وهو إمام العمل، والعمل تابعه .

فلا تستقيم عبادة يجهل صاحبها ما يجب لها من شروط، وما تقوم عليه من أركان .

---

(١) « الإحياء » ج ١ ص ٥

(٢) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم كما ورد في الدر المنثور ج ٦/٣٨١ و٣٨٢ .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور كما في الدر جـ ٦/٣٨١

(٤) « جامع بيان العلم » لابن عبد البر جـ ١/٣٣

ولهذا قال النبي - ﷺ - للرجل الذي أساء صلاته ولم يؤد لها حقها من الطمأنينة: «ارجع فصل، فإنك لم تصل».[1] وإنما قال له: «لم تصل» مع أنه أدى الصلاة أمامه، لأن صلاة منقوصة مبتورة كلا صلاة.

وفي المعاملات وشؤون الحياة عامة: شخصية وأسرية واجتماعية، يجب ان يعرف فيها الصحيح من الفاسد، والحلال من الحرام، حتى لا يتورط في الحرام وهو لا يدري. والجهل بالأحكام في دار الإسلام ليس عذراً.

فما كان من الحلال بيناً فلا جناح عليه في فعله أو تركه، وما كان من الحرام بيناً فلا عذر له في ارتكابه، وما كان من المشتبهات التي «لا يعلمهن كثير من الناس» فالحزم أن يدع ما يريبه إلى مالا يريبه. «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»[2].

وكان السلف يوصون التاجر الذي يدخل السوق أن يتفقه في أحكام البيوع والتعامل، أو يلزم فقيها يسدده ويرشده، كما كانوا يوصون من يؤهل نفسه للسيادة والقيادة، أن يتزود من العلم بما يلزم لمنصبه، وما ينير له الطريق. ومن مأثور قولهم: تفقهوا قبل أن تسودوا.

وقد قدم يوسف الصديق نفسه لملك مصر، ليضعه حيث يجب أن يوضع مثله، مشيراً إلى مؤهلاته الشخصية، وعلى رأسها الحفظ (يعني الأمانة) والعلم قال: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) [يوسف: ٥٥].

وفي الأعمال القيادية العليا مثل الإمامة العظمى والقضاء: اشترط الفقهاء فيمن يتولاها العلم الاستقلالي الذي يبلغ بصاحبه درجة الاجتهاد، حتى إذا استُفتي أفتى بعلم وإذا أمر أمر بحق، وإذا حكم - حكم بعدل، وإذا دعا - دعا على بصيرة.

---

(١) حديث المسيء صلاته مشهور، رواه الشيخان وغيرهما في كتاب الصلاة من حديث أبي هريرة انظر: نيل الأوطار، جـ ٢ ص ٢٩٤ و٢٩٥

(٢) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

ولم يقبلوا (المقلد) في الإمامة والقضاء إلا من باب الضرورات التي تبيح المحظورات، والنزول من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى.

على أن من الواجب على الأمة أن تتدارك أمورها، وتصلح من شأنها، حتى لا يلي أمورها إلا أكفاء الناس، وأصلحهم للقيادة علماً وعملاً.

ولم يُجز أحد من الفقهاء أن يلي أمور المسلمين في السياسة، والقضاء من يجهل شرع الله، الذي هو أساس الحكم بين المسلمين، فإنه سيحكم بالجهل أو الهوى، وكلاهما في النار.

روى بريدة مرفوعاً: «القضاء ثلاثة، واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»[1].

ثم إن العلم هو الذي يبين راجح الأعمال من مرجوحها، وفاضلها من مفضولها، كما يبين صحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها، ومسنونها من مبتدعها، ويعطي كل عمل «سعره» وقيمته في نظر الشرع.

وكثيراً ما نجد الذين حُرِموا نور العلم يذيبون الحدود بين الأعمال فلا تتمايز، أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع، فيفرطون او يفرطون، وهنا يضيع الدين بين الغالي فيه والجافي عنه.

وكثيراً ما رأينا مثل هؤلاء - مع إخلاصهم - يشتغلون بمرجوح العمل، ويدعون راجحه وينهمكون في المفضول، ويغفلون الفاضل.

وقد يكون العمل الواحد فاضلاً في وقت مفضولا في آخر - راجحاً في حال مرجوحاً في آخر، ولكنهم - لقلة علمهم وفقههم - لا يفرقون بين الوقتين، ولا يميزون بين الحالين.

رأيت من المسلمين الطيبين في أنفسهم من يتبرع ببناء مسجد في بلد حافل

---

(١) قال في «المنتقى»: رواه ابن ماجة وأبو داود. وقال في «نيل الأوطار» جلد ١٦٧/٩ أخرجه أيضاً الترمذي والنسائي والحاكم وصححه وقال الحافظ له طرف غير هذه جمعتها في جزء مفرد ١ هـ

بالمساجد، قد يتكلف نصف مليون أو مليوناً من الجنيهات أو الدولارات، فإذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه في نشر الدعوة إلى الإسلام، أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو في تأييد العمل الإسلامي لاقامة الحكم بما أنزل الله، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التي قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات أن تجد أذناً صاغية، أو إجابة ملبية، لانهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون ببناء الرجال!

وفي موسم الحج من كل عام أرى أعداداً غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين، وكثيراً ما يضيفون إليه العمرة في رمضان، وينفقون في ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناساً من الفقراء على نفقتهم، وما كلف الله بالحج هؤلاء فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لمقاومة الغزو التنصيري في اندونيسيا، أو الغزو الشيوعي في أفغانستان. لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

هذا مع ان الثابت بوضوح في القرآن الكريم أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج. كما قال تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليومِ الآخِرِ وجاهد في سبيل الله؟ لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القومَ الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهم وأنفُسِهم أعظمُ درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يُبشرِهُم ربُّهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) التوبة: [١٩ - ٢١]

هذا مع أن حجهم واعتمارهم من باب التطوع والتنفل، أما جهاد الكفر والالحاد والعلمانية والتحلل، وما يسندها من قوى داخلية وخارجية، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

ولقد رأيت شباباً مخلصين كانوا يدرسون في كليات جامعية في الطب، أو الهندسة، أو الزراعة، أو الآداب، أو غيرها من الكليات النظرية، أو العلمية، وكانوا من الناجحين بل المتفوقين فيها، فما لبثوا إلا أن أداروا ظهورهم لكلياتهم. وودعوها غير آسفين، بحجة التفرغ للدعوة والإرشاد والتبليغ، مع أن

عملهم في تخصصاتهم هو من فروض الكفاية التي تأثم الأمة جميعها إذا فرطت فيها، ويستطيعون أن يجعلوا من عملهم عبادة وجهاداً إذا صحت فيه النية، والتزمت حدود الله تعالى.

ولو ترك كل مسلم مهنته فمن ذا يقوم بمصالح المسلمين؟ ولقد بُعِث الرسول ﷺ، وأصحابه يعملون في مهن شتى، فلم يطلب من أحد منهم أن يدع مهنته ليتفرغ للدعوة، وبقي كل منهم في عمله وحرفته، سواء قبل الهجرة أم بعدها. فإذا دعا داعي الجهاد، واستنفروا نفروا خفافاً وثقالا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولقد أنكر الإمام الغزالي على أهل زمنه توجه جمهور متعلميهم إلى الفقه ونحوه، على حين لا يوجد في البلد من بلدان المسلمين إلا طبيب يهودي أو نصراني يوكل إليه علاج المسلمين والمسلمات، وتوضع بين يديه الأرواح والعورات.

ورأيت آخرين يقيمون معارك يومية من أجل مسائل جزئية أو خلافية، مهملين معركة الإسلام الكبرى مع أعدائه الحاقدين عليه، والطامعين فيه، والخائفين منه والمتربصين به..

حتى في قلب أمريكا وكندا وأوروبا، وجدت من جعلوا أكبر همهم. الساعة أين تُلبس.. أفي اليد اليمنى أم اليسرى؟

ولبس الثوب الأبيض بدل «القميص والبنطلون» واجب أم سنة؟

ودخول المرأة في المسجد: حلال أم حرام؟

والأكل على منضدة، والجلوس على الكرسي للطعام، واستخدام الملعقة والشوكة: هل يدخل في التشبه بالكفار أم لا؟

وغيرها.. وغيرها من المسائل التي تأكل الأوقات، وتمزق الجماعات، وتخلق الحزازات، وتُضيع الجهود والجهاد، لأنها جهود في غير هدف، وجهاد مع غير عدو.

ورأيت فتياناً ملتزمين متعبدين يعاملون آباءهم بقسوة، وأمهاتهم بغلظة، وأخواتهم بعنف، وحجتهم أنهم عصاة أو منحرفون عن الدين، ناسين أن الله تعالى أوصى بالوالدين حسناً، وإن كانا مشركين يجاهدان ولدهما على الشرك، ويحاولان بكل جهدهما فتنته عن إسلامه.

يقول تعالى: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) [لقمان: ١٥].

فرغم المحاولة المصرة من الأبوين، التي سماها القرآن، مجاهدة على الشرك، أمر بمصاحبتهما بالمعروف، لأن للوالدين حقاً لا يفوقه إلا حق الله عز وجل، ولهذا قال تعالى: (أن اشكُر لي ولوالديك إليّ المصير) [لقمان: ١٤].

أما الطاعة لهما في الشرك فهي مرفوضة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وأما المصاحبة بالمعروف فلا مناص منها، ولا عذر في التخلي عنها.

ورأينا أناسا مخلصين، يشرعون في الدين ما لم يأذن به الله، يحرمون ما لم يحرمه الله ورسوله، ويأمرون بما لم يأمر به الله ورسوله، ويتعبدون الله بغير ما شرع، بل بالأهواء والبدع.

شفيعهم لذلك - فيما زعموا - حُسن نيتهم، وصفاء طويتهم، وصدق رغبتهم في التقرب إلى الله تعالى.

وهذا فهم خاطىء لمعنى العمل الصالح المقبول عند الله تبارك وتعالى.

فلا يكفي في حسن العمل حسن النية، وحرارة الإخلاص، حتى يكون العمل مأذوناً به، ممهوراً بخاتم الشرع.

ولله در العالم الزاهد الورع - الفضيل بن عياض - الذي عبر عن هذا المعنى بعبارات جامعة ناصعة، حين سئل عن « أحسن العمل » في قوله تعالى. (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) قال: أحسن العمل أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه؟ وما أصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصا لم يُقبل. ولا يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً.

والخالص... أن يكون لله.

والصواب... أن يكون على السنة.[١]

فضل العلم على العبادة:ـ

والإسلام ـ فيما نعلم ـ أول دين يفضل الاشتغال بالعلم وطلبه، والتبحر فيه على التطوع بالشعائر المعروفة، من صلاة وصيام وحج ونحوها مع أن القرآن يعلن في صراحة وجلاء أن الله تعالى لم يخلق الثقلين إلا ليعبدوه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات: ٥٦].

ولكن العبادة إذا أديت على غير علم، فهي كبنيان على غير أساس، فالعلم هو الذي يوضح أركان العبادة، وشروطها، وآدابها الظاهرة، وأسرارها الباطنة، كما يبين ما يصححها وما يبطلها، وما يكملها أو ينقصها.

والعلم يعرف صاحبه بمنازل الأشياء، ومراتب الأعمال، حتى يميز بين النفل والفرض، ويبين المهم وغير المهم، ويبين الأصول والفروع، فلا يقدم نافلة على فريضة، ولا يقدم غير المهم على المهم، ولا يضيع أصلاً من أجل فرع.

وفي مثل هذا قال السلف: إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة.

وقالوا: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور[٢].

ومن فضل العلم على العبادة أن معظم العبادات قاصرة النفع لا تتجاوز

---

(١) انظر كتابنا «العبادة في الإسلام» فصل: «لا يعبد الله إلا بما شرع ص ١٦٥-١٧٤ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) رأينا من الناس من يصوم الاثنين والخميس تطوعاً، ثم يفرط في واجبه نحو عمله اليومي الذي يتقاضى عليه أجراً، بحجة تعبه من الصيام، أو يقصر في واجبه نحو أسرته أو المجتمع من حوله.
ورأينا من يحج أو يعتمر كل عام، ومع هذا يماطل في قضاء ديونه، أو يجور على اعماله وموظفيه، أو تتعامل مع المصارف بالربا.. الخ، وهذا كله في الأغلب نتيجة لقلة الفقه في الدين.

صاحبها، فالمصلي والصائم، والحاج والمعتمر، والذاكر والمسبح، يزيد عملهم من حسناتهم، ويرفع من درجاتهم... ولكن المجتمع من ورائهم لا ينال من جراء عبادتهم شيئاً مباشراً، يحقق لهم منفعة، أو يدفع عنهم مضرة.

أما العلم فنفعه متعد... لا يقتصر على صاحبه، بل يتجاوزه إلى غيره من الناس من كل من يسمعه، أو يقرؤه، وقد يكون بينه وبينهم جبال ووهاد، أو بحار وقفار.

فالعلم لا يعرف القيود، ولا يعترف بالحواجز والسدود، وخاصة في عصرنا الذي ينشر فيه العلم المسموع بالإذاعة، والمرئي بالتلفاز، في ثوان معدودة، بل في نفس اللحظة، إلى المستمعين والمشاهدين في مساحات شاسعة، وينشر العلم المكتوب بوساطة الطباعة الحديثة إلى آفاق المعمورة في أيام بل ساعات معدودات.

ولا عجب أن روى أبو أمامة - رضي الله عنه - قال: ذكر للنبي ﷺ رجلان، أحدهما عالم، والآخر عابد، فقال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[1]

وروى عنه حذيفة بن اليمان: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[2]

وقد تقدم حديث أبي الدرداء: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

ومن فضل العلم على العبادة: أنه لا ينقطع بانقطاع الحياة، ولا يموت بموت أصحابه.

فمن صلى، أو صام، أو زكى، أو حج، أو اعتمر، أو سبح وهلل وكبر، فإن هذه الأعمال لها مثوبتها الجزيلة عند الله تعالى، ولكنها تنتهي بانتهاء أدائها والفراغ منها.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح كما في الترغيب حديث ١٣٠

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بإسناد حسن/ ترغيب ١٠٣.

وقال في «مجمع الزوائد» جـ١/ ١٢٠ فيه عبد الله بن عبد القدوس، وثقه البخاري وابن حبان، وضعفه ابن معين.

أما العلم فإن أثره يظل باقياً ممتداً، ما دام في الناس من ينتفع به، مهما تطاولت السنون، وتعاقبت القرون.

فعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له[1]»

وقال أيضاً: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته»[2].

وبهذا يعيش العالم عمراً طويلاً بعد عمره المحدود، وبخاصة من كتب وصنف، فإن عمر المكتوب أطول، وأثره أبقى.

ألا ترى أننا اليوم ننتفع بتراث علمائنا السابقين، وندعو لهم، ونترحم عليهم، وبيننا وبينهم أزمان وقرون تندق فيها أعناق المطي.

قال يحيى بن أكثم: قال الرشيد يوماً: ما أنبل المراتب؟

قلت: يا أمير المؤمنين ما أنت فيه. قال: فتعرف من هو خير مني؟ قلت: لا قال: لكني أعرفه. رجل يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ.

قال: قلت يا أمير المؤمنين: أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ، وولي عهد المؤمنين؟

قال: نعم، ويلك! هذا خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله - ﷺ - لا يموت أبداً. ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقي الدهر[3].

وما أبلغ ما قال الإمام علي - رضي الله عنه - لكميل بن زياد: «العلم

---

(١) رواه مسلم وغيره

(٢) رواه ابن ماجة بإسناد حسن، والبيهقي، ورواها ابن خزيمة في صحيحه مثله إلا أنه قال. أو نهر أكراه وقال: يعني حفره. ولم يذكر المصحف. الترغيب ١٢٣.

(٣) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» جـ١/١٦٥ ط دار الكتب لبنان.

خير من المال: العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة، والعلم حاكم والمال محكوم عليه».

«العلم يكسب العالم الطمأنينة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[1]

الاشتغال بالعلم أفضل ما يتطوع به:ـ

وهذه الأحاديث وما جاء في معناها، وما جاء في فضل العلم عامة ـ هي التي جعلت كثيراً من السلف يعدون العلم أفضل ما يتطوعون به متقربين لله تعالى.

فعن ابن مسعود قال: الدراسة صلاة.

وعن أبي الدرداء قال: مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل.

وعن ابن عباس: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها.

وعن أبي هريرة: لأن أجلس ساعة فأفقه في ديني أحب الي من أن أحيي ليلة إلى الصباح.

وقال قتادة: باب من العلم يحفظه الرجل لعلاج نفسه، وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حول.

وقال الثوري: ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

وعنه أيضاً: ما أعلم اليوم شيئاً أفضل من طلب العلم، قيل له: ليس لهم نية! قال: طلبهم له نية.

وقال ابن وهب: كنت عند مالك قاعداً أسأله، فجمعت كتبي لاقوم. قال مالك: أين تريد؟ قال: قلت: أبادر إلى الصلاة. قال: ليس هذا الذي أنت فيه دون ما تذهب إليه، إذا صح فيه النية.

وقال الزهري: ما عبد الله بمثل الفقه.

---

(١) قال ابن القيم: ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره. وقال أبو بكر الخطيب: هذا حديث من أحسن الأحاديث وأشرفها لفظاً. المصدر السابق ص ١٢٣

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: حظ من علم أحب إلي من حظ من عبادة.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.[1]

وقد نقل عن أبي حنيفة مثل ما نقل عن الشافعي ومالك وسفيان من تفضيل العلم على سائر النوافل[2].

هؤلاء هم أئمة الفقه وأصحاب المذاهب المتبوعة.

وبهذا يتضح أن المفاضلة بين العلم والعبادة لا تعني المفاضلة بين العلم المفروض والعبادة المفروضة، ولا بين نفل العلم وفرض العبادة، ولا العكس، فإنه لا مفاضلة بين فريضتين لازمتين.

فلا يجوز أن يشغل شيء عن العبادة المفروضة كالصلاة والمحافظة عليها. وأدائها في وقتها، ولو كان هو طلب العلم.

ولا يتصور من ذي علم أن يجيز لنفسه أو غيره الاشتغال بالعلم عن أداء الفرائض المكتوبة.

ولهذا لما نقل المحقق ابن القيم حديث عائشة، «فضل العلم خير من نفل العمل»، قال: وهذا الكلام هو فصل الخطاب في المسألة، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضاً فلا بد منهما كالصوم والصلاة، فإذا كانا فضلين - وهما النفلان المتطوع بهما - ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها، لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه، والعبادة يختص نفسها لصاحبها - ولأن العلم تبقى فائدته، ولما مر من الوجوه السابقة[3].

فضل العلم على الجهاد:-

ويندرج في فضل العلم على العبادة فضله على الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام الذي استفاضت في بيان فضيلته آيات القرآن وأحاديث الرسول.

---

(١) انظر «جامع بيان العلم» لابن عبد البر جـ١/ ٢٥ باب تفضيل العلم على العبادة.

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم جـ ١/ ١١٩

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٠.

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أحد أوعية العلم، ومصابيح الهدى: والذي نفسي بيده، ليودَّنَّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء، لما يرون من كرامتهم[1] أي: من كرامة العلماء.

ويقول الفقيه الداعية المربي الحسن البصري: يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء،فيرجح مداد العلماء.

ذلك أن الجهاد لا يعرف فضله إلا بالعلم.

ولا تتضح شروطه وحدوده إلا بالعلم.

ولا يتبين الجهاد المشروع من القتال غير المشروع إلا بالعلم.

ولا يتميز النفل فيه عن الفرض إلا بالعلم.

ولا يعرف فرض الكفاية فيه من فرض العين إلا بالعلم.

وكم رد النبي ﷺ من مسلم جاءه يجاهد معه، لأنه رأى أنه ترك واجباً يخصه ألزم من الجهاد، فعن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فاستأذنه في الجهاد، فقال: « أحي والداك »؟

قال: نعم، قال: « ففيهما فجاهد »[2].

وفي رواية: أن الرجل قال: يا رسول الله، جئت أريد الجهاد معك، ولقد أتيت وإن والدي يبكيان. قال: « فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »[3].

وعن أبي سعيد: أن رجلاً هاجر إلى النبي ﷺ من اليمن، فقال: « هل لك أحد باليمن؟ فقال: أبواي، فقال: أذنا لك؟ فقال: لا، قال: ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما »[4].

وفي حديث آخر أنه - ﷺ - قال لمن جاء يستشيره في الغزو معه: هل

---

(١) « مفتاح دار السعادة » ص/ ١٢١

(٢) قال في « المنتقى » رواه البخاري، والنسائي، وأبو داود، والترمذي وصححه.

(٣) قال في « المنتقى » رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه. وقال في « النيل » أخرجها أيضا النسائي وابن حبان، وأخرجها أيضاً مسلم وسعيد بن منصور من وجه آخر في نحو هذه القصة.
قال: ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما « نيل الأوطار » جـ ٨/ ٣٧، ٣٨ والترغيب جـ٧ حديث ٣٥٨٤

(٤) رواه أبو داود. وصححه ابن حبان كما في « نيل الأوطار » السابق

لك من أم؟ قال: نعم، فقال: «الزمها فإن الجنة عند رجليها»[1].

وبهذه الأحاديث استدل العلماء على وجوب استئذان الأبوين في الجهاد، وبذلك قال الجمهور، وجزموا بتحريم الجهاد إذا منع عنه الأبوان أو أحدهما، لأن برهما فرض عين، والجهاد فرض كفاية، فإذا صار الجهاد فرض عين فلا إذن، لأن تركه معصية، ولا طاعة لبشر في معصية الله تعالى

وهذا بشرط أن يكون الأبوان مسلمين، لأن الكافرين لا يرضيان يوماً بالجهاد لنصرة الإسلام وخذلان دينهما.

وكل هذه الحدود والفوارق الدقيقة إنما تعرف بالعلم، فمن أعرض عن العلم، واشتغل بالجهاد كان حرياً أن يقع في الخطأ، أو ينحرف عن سواء الصراط وهو لا يدري.

وكم من أناس في الماضي حملوا سيوفهم على عواتقهم يقاتلون من عصم الله دماءهم وأموالهم يزعمون أنهم بذلك يجاهدون، فيقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان! أولئك هم الخوارج الذي صح الحديث في ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد بن حنبل، وأيده ابن تيمية.

وما ذلك إلا لأنهم تعبدوا قبل أن يتعلموا، وجاهدوا قبل أن يتفقهوا، وتعجلوا العمل قبل العلم، فضل سعيهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وكم من شباب في زمننا دفعهم الحماس الكثير في صدورهم، مع العلم القليل في رؤوسهم، والإعجاب المزهو برأيهم، إلى رفض أمتهم، وتكفير جماهيرها، واعتبار أوطانها ديار كفر لا دار إسلام، فاستحلوا بذلك ما حرم الله، وأسقطوا ما أوجب الله، اتباعاً لمتشابه النصوص، وابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.

ولو تعلموا وفقهوا، وتلقوا العلم من أهله، وعرفوه من مناهله، لوقف بهم العلم عند حدودهم، وعرفهم حقيقة الجهاد: كيف يكون؟ ومتى يكون؟ ولمن يكون؟

---

(١) رواه النسائي، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. الترغيب حديث ٣٥٩١

وهذا ما نصح به الإمام الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ حيث يقول: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح. فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجو بأسيافهم على أمة محمد ـ ﷺ ـ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا.[1]

على أن الجهاد الذي جاء به الإسلام ليس كله جهاداً بالسيف، فهناك جهاد بالقلب واللسان، والحجة والبيان، أي جهاد بالعلم. وهو المذكور في قوله تعالى (فلا تُطع الكافرين وجاهدهم به ـ أي القرآن ـ جهاداً كبيراً) [الفرقان: ٥٢].

فلم يكتف القرآن بتسميته جهاداً، بل سماه «جهاداً كبيراً» وهذا في مكة قبل أن يُشرَع القتال.

وهو جهاد المنافقين في قوله سبحانه (يا أيُّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) [سورة التوبة: ٧٣] و [سورة التحريم: ٩].

فجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان. ولا تعجب إذا جاء في الحديث. «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[2].

قال الإمام ابن القيم: «إنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد. فقوام الدين بالعلم والجهاد. ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان. وهذا المشارك فيه كثير. والثاني الجهاد بالحجة والبيان. وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ط/٨٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب العلم برقم ٢٦٤٩ من حديث أنس وقال: حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه. وأخرجه أيضاً الضياء في المختارة، وقال المناوي في الفيض (١٢٤/٦): فيه خالد بن يزيد اللؤلؤي.
قال العقيلي: لا يتابع على كثير من حديثه ثم ذكر له هذا الخبر وله شاهد بمعناه من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجه رقم ٢٧٧ بلفظ «من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله» وقال في الزوائد: إسناده صحيح على شرط مسلم وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي (٩١/١).

الجهادين، لعظم منفعته، وشدة مؤنته. وكثرة أعدائه. قال تعالى في سورة الفرقان، وهي مكية (ولو شئنا بعثنا في كل قرية نذيراً. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) [٥١-٥٢]. فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين. وهو جهاد المنافقين أيضاً، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم. ومع هذا فقد قال تعالى: (يا أيُّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغْلُظْ عليهم). ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن. قال: والمقصود أن «سبيل الله» هي الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: عليكم بطلب العلم، فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادته، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد. ولهذا قرن - سبحانه - بين الكتاب والميزان والحديد الناصر، كما قال تعالى: (لقد أرسلنا رُسلَنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقوم الناسُ بالقسط، وأنزلنا الحديدَ فيه بأس شديد ومنَافِعُ للناس، وليَعْلَم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز) [الحديد: ٢٥].

فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين. كما قيل:

فما هو إلا الوحي أوحد مُرْهَفٍ ... تميل ظباه اخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل ... وهذا دواء الداء من كل جاهل

والمقصود أن كلاً من الجهاد بالسيف والحجة يسمى (سبيل الله) وفسر الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم) [النساء: ٥٩] - بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون في سبيل الله: هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم.

فطلب العلم وتعلمه من أعظم سبيل الله عز وجل.

قال كعب الأحبار طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله عز وجل.

وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم: إذا جاء الموت طالب العلم، وهو على هذا الحال، مات وهو شهيد.

وقال سفيان بن عيينة: من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل.

وقال أبو الدرداء: من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد، فقد نقص في عقله ورأيه[1].

العلم ينفع في الدنيا قبل الآخرة:

ومن فضائل العلم ومزاياه: أن نفعه لأهله لا يقتصر على ثواب الآخرة وحدها، بل ينفعهم في الدارين، ويجمع لهم بين الحسنيين، ويرفع درجاتهم عند الله وعند الناس، فثمراته معجلة، وقطوفه دانية.

قال الإمام الحسن البصري في تفسير قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) [البقرة: ٢٠] هي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة): هي الجنة.

قال الامام ابن القيم: وهذا من أحسن التفاسير فإن أجل حسنات الدنيا: العلم النافع والعمل الصالح[2].

ومن أجمل ما ورد في ذلك قصة ابن أبزى. ذلك أن نافع بن عبد الحارث لقي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعُسفْان ـ وكان عمر ولاه على مكة فسأله: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارىء لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض (المواريث) قال عمر: أما إن نبيكم ـ ﷺ ـ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين»[3].

وقال إبراهيم الحربي:

«كان عطاء بن أبي رباح عبداً أسود لامرأة من مكة، قال: وجاء سليمان ابن عبد الملك ـ أمير المؤمنين ـ إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه إليهم! ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما. فقال: يا بني لاتنيا في طلب

(١) «مفتاح دار السعادة» جـ١/ ٧٧ و٧١

(٢) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٧٧

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه حديثه رقم ٨١٧، وأحمد في مسنده ـ الفتح الرباني ج١/ ١٤٦

العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود![1].

ضياع العلم مؤذن بخراب الدنيا:

وقد نبهت الأحاديث الصحيحة إلى حقيقة مهمة، وهي أن الحياة بغير علم لا تستحق البقاء، وأن ضياعه أو إضاعته نذير بخراب الدنيا، وأن الساعة على الأبواب.

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل، (وفي رواية: يقل العلم ويكثر الجهل) ويشرب الخمر، ويظهر الزنى»[2].

قال العلامة الكرماني في شرحه للبخاري: إنما كان اختلال هذه الأمور مؤذناً بخراب العالم، لأن الخلق لا يتركون هملاً، ولا نبي بعد نبينا - ﷺ - فيتعين ذلك[3].

والمراد بالعلم هنا: علم الدين الموروث عن النبوة، فهو الذي يهدي الناس إلى الله، ويقفهم عند حدوده، ويعرفهم أمره ونهيه، وحلاله وحرامه.

ولا يبعد أن يضيع الناس هذا العلم وإن وصلوا في علم الدنيا إلى غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب، فقد يفعلون ذلك وهم بالله جاهلون، وعنه غافلون، كعامة الغربيين اليوم، إلا من رحم ربك، فهم كالذين وصفهم الله تعالى في كتابه بقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهُم عن الآخِرة هُم غافلون) [الروم: ٦-٧].

فانظر كيف نفى الله عنهم العلم بقوله: «لا يعلمون» ثم قال: (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) ولا يناقض هذا الإثبات ذلك النفي، لأن هذا النوع وهذا المستوى من العلم - العلم بظاهر من الدنيا مع الغفلة عن المصير - هو علم أشبه بالجهل. فلا عجب أن يوصف أصحابه بأنهم لا يعلمون.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» جـ١/١٦٥.

(٢) البخاري: كتاب «العلم» باب رفع العلم وظهور الجهل.

(٣) فتح الباري جـ١ ص ١٨٩.

ولكن كيف يرفع العلم ويذهب؟ إنه يذهب بذهاب أهله الذين يُرجَعُ إليهم في المعضلات، ويُحتكم إليهم عند الخلاف، الذين إذا استفتوا أفتوا بعلم، وإذا استقضوا قضوا بحق، وإذا دعوا كانت دعوتهم على بصيرة.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من العباد (أي: محوا من الصدور)، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوساء جهالاً، فَسُئِلُوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

وكان تحديث النبي ـ ﷺ ـ بذلك في حجة الوداع، كما رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة، قال: لما كان في حجة الوداع قال النبي ـ ﷺ ـ: «خذوا العلم قبل أن يُقبض أو يُرفع. فقال أعرابي: كيف يُرفع؟ فقال: ألا إنه ذهاب العلم ذهاب حملته» ثلاث مرات[2].

ومن هنا كان موت العلماء الثقات مصيبة يحزن لها المؤمنون، ويسألون الله الصبر عليها، والعوض عنها، حتى روي عن عمر قوله: لموت ألف عابد، قائم النهار، صائم الليل، أهون من موت عالم، بصير بحلال الله وحرامه»[3].

ولما مات زيد بن ثابت كاتب الوحي، وقارىء القرآن، وعالم الأنصار، قال عبد الله بن عباس: من سره أن ينظر كيف ذهاب العلم، فهكذا ذهابه.

وقال الحسن: موت العالم ثلمة، (أي: ثغرة وخلل في البناء) في الإسلام، لا يسدها شيء ما اطرد الليل والنهار.

وقال ابن عباس أيضاً: لا يزال عالم يموت، وأثر للحق يُدرس، حتى يكثر أهل الجهل، وقد ذهب أهل العلم، فيعملون بالجهل، ويدينون بغير الحق، ويضلون عن سواء السبيل.

وكان أبو الدرداء يقول: مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا

---

(١) هو في صحيح البخاري باب كيف يقبض العلم وفي صحيح مسلم كتاب العلم حديث رقم (٢٦٧٣)

(٢) ذكره الحافظ في «الفتح» ج ١ ص ٢٠٥

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء

يتعلمون؟ تعلموا قبل أن يُرفع العلم، فإن رفع العلم ذهاب العلماء[1].

كذلك كان حرصهم على طلب العلم وتعليمه وتدوينه، حتى لا يأتي وقت يفقدون فيه من يحمله، ويقوم بحقه.

كتب عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى أبي بكر بن حزم ـ واليه على المدينة ـ يقول له: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ وليُفْشوا العلم، وليجلسوا، حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[2].

فهو بهذا يرفع شعار: العلم للجميع.

قال الحافظ في «الفتح»: وقد روى أبو نعيم: في «تاريخ أصبهان» هذه القصة بلفظ: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث الرسول ـ ﷺ ـ فاجمعوه»[3].

---

(١) روى هذه الآثار كلها ابن عبد البر في جامع بيان العلم ـ باب ما روي في قبض العلم وذهاب العلماء.

(٢) ذكر ذلك البخاري معلقاً بصيغة الجزم.

(٣) الفتح جـ١ ص ٢٠٤.

الرسول والعلم التجريبي

العلم الذي دعا إليه الإسلام، وحث عليه القرآن والسنة: هو كل معرفة مستندة إلى استدلال. ولهذا لا يعد علماء المسلمين التقليد علماً، لأنه اتباع لقول الغير بلا حجة.

وعلى هذا يشمل العلم في الإسلام مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة «العلم» بمفهومها الغربي الحديث.

فيشمل العلم مجال «ما وراء الطبيعة» مما جاء به الوحي، فكشف به عن حقائق الوجود الكبرى، وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التي حيرت الإنسان منذ فكر وتفلسف وهي: من أين؟ وإلى أين، ولم؟

بالجواب عن هذه الأسئلة عرف الإنسان مبدأه ومصيره ورسالته، عرف نفسه وعرف ربه واطمأن إلى غايته.

وهذا أولى ما يطلق عليه لفظ «العلم» بل هو كما يسميه الإمام ابن عبد البر (العلم الأعلى).

ويشمل العلم مجال (الإنسان) وما يتعلق به من دراسات، تبحث عن جوانب حياته، وعلاقاته المكانية، والزمانية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغير ذلك مما تهتم به العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويشمل العلم مجال (الماديات) المبثوثة في الكون علويه وسفليه، وهي تتضمن علوم الطبيعة، والكيمياء، والأحياء، والفلك، والطب، والهندسة وغيرها، مما يقوم على الملاحظة والتجربة.

وهذا المعنى أو هذا المجال، هو الذي يقف عنده الغربيون اليوم، لا

يجاوزونه إذا تحدثوا عن «العلم» لأنه وحده الذي يخضع للاختبار والقياس، وتحكم عليه المشاهدة والتجربة، ويمكن إدخاله «المعمل» أو «المختبر».

وأقول: إن الإسلام لا يقف عقبة في سبيل هذا النوع من «العلم» الذي تعتبر المادة موضوعاً له، ولا يعده مقابلاً للإيمان، أو معادياً له، كما اعتبرت ذلك أديان أخرى في مراحل تاريخية معينة.

بل أقول بكل صراحة واعتزاز: إن تعاليم القرآن والسنة قد هيأت المناخ النفسي والعقلي الذي ينبت فيه هذا العلم، بحيث ترسخ أصوله، وتمتد فروعه، ويؤتي أكله بإذن ربه.

ومن هذه التعاليم.

١ - تكوين العقلية العلمية:

فهناك عقلية عامية أو خرافية تُصدق غالباً كل ما يقال لها، وتقبل كل ما يلقى إليها، وخصوصاً إذا جاء ممن تعظمه من الآباء أو الكبراء، وتنقاد لما عليه جمهور الناس صواباً كان أو خطأً، ولا تمتحن أفكارها، ولا تخضع معلوماتها لمناقشة أو اختبار، شعارها: «هذا ما وجدنا عليه آباءنا» أو «نحن مع الناس أحسنوا أو أساؤوا».

وفي مقابل هذا اللون: «العقلية العلمية الموضوعية» التي لا تقبل نتائج بغير مقدمات، ولا تخضع إلا للحجة والبرهان، ولا تحكم العواطف والظنون في مقام يطلب فيه اليقين المجرد، والعلم المحقق، وقد وضح القرآن والسنة المعالم الأساسية التي تقوم عليها هذه العقلية العلمية، ونستطيع أن نوجزها في النقاط التالية:

(١): ألا تُقبل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها، والدليل هو: البرهان النظري في العقليات (قل هاتوا بُرهَانَكُم إن كُنتم صادقين) [النمل: ٦٤]، والمشاهدة أو التجربة في الحسيات (وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثا أشهدُوا خلقهم) [الزخرف: ١٩]، وصحة الرواية وتوثيقها في النقليات

(ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) [الاحقاف : ٤] .

(٢) : رفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين الجازم ، والعلم الواثق ـ ولذا رد القرآن مزاعم المشركين في آلهتهم بقوله : (وما لهم به من علم إن يَتّبعون إلا الظن وإنَّ الظن لا يُغني من الحق شيئاً) [النجم : ٢٨] .

ورد مزاعم اليهود والنصارى في صلب المسيح فقال : (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً) [النساء : ١٥٧] .

وجاء في الحديث الصحيح : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث[١] » .

(٣) : رفض العواطف ، والأهواء والاعتبارات الشخصية حيث يطلب الحياد ، والموضوعية ، وحيث يكون التعامل مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود ، أياً كانت نتائجها . يقول القرآن منكراً على المشركين : (إن يَتَّبِعُون إلا الظن وما تهوى الأنفُس) [النجم : ٢٣] وقال في خطاب داود : (فاحْكُمْ بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله) [ص : ٢٦] وفي خطاب الرسول ﷺ (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) [القصص : ٥٠] .

(٤) : الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين ، سواء كانوا من الآباء والأجداد ، أم من السادة والكبراء ، أم من العامة والجماهير ، وفي القرآن إنكار شديد على الذين يقولون ، (بل نَتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا) وهو رد عليهم بقوله (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) [البقرة : ١٧٠] وفي القرآن كذلك نعي شديد على موقف الأتباع الذين أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل ، وبيان تبرئهم يوم القيامة بعضهم من بعض ، وتحميل الفريقين تبعة ما هم فيه من ضلال ، قال : (لكُلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون) [الأعراف : ٣٨] .

وفي الحديث أيضاً تحذير من اتباع الجمهور وإن كانوا على خطأ ، وإدانة

(١) رواه أحمد والشيخان ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي هريرة

لعقلية من يرضى لنفسه أن يكون تابعاً، وقد خلقه الله سيداً. «لا يكن أحدُكُم إمَّعة» يقول: أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا»[1].

وهذا الموقف الأخلاقي الذي يتميز باستقلال الشخصية في السلوك، يدعو إلى مثله في الفكر أيضاً.

(٥) الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل: (في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) [الأعراف: ١٨٥]. وفي الإنسان نفسه فهو عالم وحده (وفي أنفسِكم أفلا تُبصرون) [الذاريات ٢١]، وفي سير التاريخ البشري، ومصاير الأمم، وسنن الله في الاجتماع الإنساني (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) [آل عمران: ١٣٧].

٢ ـ محاربة الأمية:

ومن هذه التعاليم التي تهيء تربة المجتمع لظهور التفكير، والبحث العلمي: نشر التعليم ومطاردة الأمية، ولهذا حرص النبي ﷺ على محاربة الأمية التي كانت منتشرة بين العرب، حتى كانوا يعرفون بين الامم بـ«الأميين»، وهكذا أسماهم القرآن (هو الذي بعث في في الأميين رسولاً مِنهم) [الجمعة: ٢] وقال عليه الصلاة والسلام معبراً عن الواقع القائم حينذاك «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب[2]».

والرائع هنا أن هذا النبي الأمي في هذه الأمة الأمية، كان أول من مجد «القلم» وعمل على إشاعة الكتابة، ومحو الأمية بين أتباعه، بكل سبيل.

ولا غرو، فإن أول آيات أنزلت عليه من ربه، تضمنت التنويه بالقراءة والقلم والتعليم (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨) بنحوه وقال: حسن غريب.

(٢) رواه البخاري

وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم) وثاني سورة نزلت من القرآن العظيم سميت سورة (القلم) وفي مطلعها أقسم الله بهذه الأداة الصغيرة في حجمها، الكبيرة في أثرها (القلم) فقال (ن. والقلم وما يسطرون). وحينما أتيحت للرسول - ﷺ -، فرصة لتعليم بعض المسلمين الكتابة، لم يدعها تفوت دون أن يستفيد منها وذلك في غزوة بدر، حيث كان بعض أسرى قريش ممن يعرفون الكتابة، فجعل فداء الواحد منهم من أسره، أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

وذكر ابن سعد عن عامر الشعبي قال: أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون. فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا «حذقوا» فهو فداؤه[1]

وذكر أن زيد بن ثابت - أحد كتاب الوحي - كان ممن علمه أسرى قريش. ومعنى هذا أن خطة النبي ﷺ لم تكن قائمة على مجرد «فك الخط» كما يقولون، بل لا بد من درجة «الحذق» والإتقان، حتى لا ينسى ويرتد إلى الأمية من جديد.

ولم يمنع النبي ﷺ اختلاف الدين ان يأخذ من المشركين خير ما عندهم، ولا سيما أن مجرد تعلم الكتابة لا يحمل - في العادة - فكراً ولا ثقافة، ولا يتلون بلون المعلم

ولم يقف حث النبي ﷺ على تعلم الكتابة عند الرجال فقط بل شمل النساء أيضاً[2]، وقد علمت الشفاء بنت عبد الله أم المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة[3]

---

(١) «طبقات ابن سعد» ج١ ص ٢٢ ط بيروت

(٢) أما الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٣٩٦ عن عائشة مرفوعاً «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة - يعني النساء. وعلموهن المغزل وسورة النور» وقال الحاكم صحيح الإسناد فقد تعقبه الذهبي وقال: بل موضوع.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، وسكت عنه هو والمنذري ورجال إسناده رجال الصحيح إلا إبراهيم بن مهدي البغدادي المصيصي، وهو ثقة كما في «نيل الأوطار» ج٩ ص ١٠٣ ط دار الجيل - لبنان.

٣ ـ تعلم اللغات عند الحاجة:

ومن هذه التعاليم المهمة لإيجاد مناخ علمي: تعلم لغات الآخرين عند الحاجة إليها وخصوصاً إذا كان عندهم علم يؤخذ، أو حكمة تقتبس فلا سبيل إلى الانتفاع بما عند غيرك إذا جهلت لغته. ولم يمنع الإسلام من تعلم لغات الآخرين، بل دعا إليها باعتبارها وسيلة لنشر دعوته في العالم.

وذلك أن رسالته ـ ﷺ ـ، رسالة عالمية، فهو ـ وإن كان عربياً. والكتاب المنزل عليه عربي، وقد أرسله الله بلسان قومه ليبين لهم ـ قد بُعث للناس كافة (ليكون للعالمين نذيراً) [الفرقان: ١] (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء: ١٠٧] (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) [الأعراف: ١٥٨].

فلا بد من تراجمة بينه وبين أرباب اللغات الأخرى، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم، وتلقي الإجابة منهم، وقد كان عنده ـ ﷺ ـ من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشية، ويكفيه هم الترجمة منها وإليها، ولكن لم يكن عنده من يعرف اللغة السريانية التي يكتب بها يهود، فأمر بذلك كاتب وحيه الأنصاري النابغة زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ليتقنها قراءة وكتابة ويستغني بها عن الوسطاء من اليهود في ذلك.

قال زيد: أمرني رسول الله ﷺ، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، فما مر لي نصف شهر حتى تعلمته وحذقته، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ له كتبهم[1] ولعله كان على شيء من المعرفة بها من قبل (لمجاورة الأنصار اليهود) حتى أمكنه أن يحذقها في هذه المدة القصيرة. ومن هنا حرص كثير من المسلمين على معرفة اللغات، فترجموا منها وإليها وقال في ذلك الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثُر نفعه ... فتلك له عند الملمات أعوان
فأقبل على درس اللغات وحفظها ... فكل لسان في الحقيقة إنسان

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي ـ انظر ـ جمع الفوائد وأعذب الموارد ج ١ حديث ٣١٩ ط المدينة المنورة.

٤ ـ استخدام أسلوب الإحصاء:

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين، أو الغوغائيين من الناس فإن النبي ﷺ، قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من اقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «احصوا لي كم يلفظ الإسلام».

وفي رواية للبخاري أنه قال: «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» قال حذيفة: فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل[1].. الحديث.

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر، يرينا إلى أي حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا نجد في «العهد القديم» أن أحد أنبياء بني إسرائل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم! كأنما (الإحصاء) يمثل تحدياً للقدر او للإرادة الإلهية وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن «التوراة» والكتاب المقدس لا يتيح مناخاً مناسباً لإنشاء عقلية علمية.

٥ ـ التخطيط: ـ

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط

(١) انظر: جامع الأصول، ج ١٠ ص ١٠٠ حديث ٧٥٧٠ تحقيق عبد القادر الارناؤوط.

وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل. ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولا بد له أن يخطط حياته، ويضع لنفسه منهاجاً يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاماً، لمواجهة أزمة غذائية عامة. عرف يوسف ـ بما الهمه الله، وعلمه من تأويل الأحاديث ـ أنها ستصيب المنطقة كلها، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة. ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها، قال: (تزرعون سبْعَ سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سُنبله إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شِدّاد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يَعْصِرُون) [يوسف: ٤٧-٤٩].

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على الله، أو الإيمان بقضائه، وقدره، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلاً عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله، وسنة رسوله يتبين له انهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابط، ولا رابط ولا نظام. وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعني اطراح الأسباب او إغفال السنن، التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد

مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلا: يا رسول الله، أأعقل ناقتي وأتوكل أم اطلقها وأتوكل؟ فقال له: «اعقلها وتوكل»[1].

وقال الإمام الطبري يرد على من زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل: الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر - ﷺ - بين درعين ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[2].

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته، ويهيء له أسبابه وأهميته، آخذاً حذره، مقدراً كافة الاحتمالات، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابه - بعد ان اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان - مهما بعد - في شبه جزيرة العرب - فإن قريشاً - بما لها من نفوذ ديني وأدبي - تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس، وقال: غريب أي ضعيف، وأنكره يحي القطان لكن أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عمر بن أمية الضمري، وإسناده - كما قال الزركشي: - صحيح - ورواه عنه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه بلفظ: «قيدها وتوكل» وإسناده - كما قال الزين العراقي: - جيد - انظر: فيض القدير ص٧ حديث ١١٩١.

(٢) نقله الشوكاني في نيل الأوطار ج٩ ص ٩٢ ط دار الجيل بيروت.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيداً إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافياً، فهو ليس جد بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينياً، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يعدون أقرب مودة للمسلمين.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسياً، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا قال الرسول لأصحابه، «إن بها ملكاً أرجو ألا تُظلموا عنده».

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضاً موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم (غُلِبَت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغلِبُون).

وهكذا... فقد كانوا ـ وهم في فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد ـ على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي.

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ في هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمي، والتوكل الإيماني جنباً إلى جنب.

فلقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر اعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه انفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذي سيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك افضل من أبي بكر رفيقاً.

واطمأن إلى الفدائي الذي سيبيتُ مكانه، معرضاً نفسه لاحتمالات الخطر، وغدارات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من علي ابن عمه أبي طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليل الخريت الذي يدله على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابيء يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركاً أميناً، هو عبد الله ابن أريقط. وهو ما أخذ منها الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه، ودليله في سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان الموعود الذي يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذي يختفي فيه أياماً معدودة، حتى تخف حدة الطلب، ويتملك القوم اليأس، واختاره في غير طريق المدينة زيادة في التعمية على القوم، فكان غار «ثور».

وأعد فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد، والأنباء خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبي بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيره مولى أبي بكر يأتي بغنمه فيحلبون منها ويعفي على آثار أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون ان تُسد، ووضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر، غير دور علي، غير دور أسماء، وكل في موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، ليرى الرسول وصاحبه في الغار، وهذا ما

خشيه أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ حين قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟ (لا تحزن، إن الله معنا) [التوبة: ٤٠].

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما في وسعه ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده. وهنا تقع «إن الله معنا» موقعها وتؤتي اكلها.

٦ ـ إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية:

ولعل أظهر ما يميز «العلم» بالمفهوم العصري أو الغربي: أنه لا يقوم على المنطق الشكلي أو الصوري أو القياسي الذي ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة ويخضع في نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يسمى «العلم التجريبي» ويسمى منهجه «المنهج التجريبي».

وهنا أيضاً نجد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعاً، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعاً.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئاً. فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية. حسب ظنه الناشىء عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم،

يدبرونها وفقا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.

والقصة في صحيح مسلم، ومسند احمد وغيرهما، ورواها عدد من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وانس رضي الله عنهم.

ففي المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبي - ﷺ - في نخل المدينة، فرأى أقواما في رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال يأخذون من الذكر فيحطون في الأنثى يلقحون به فقال: «ما أظن ذلك يغني شيئا. فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئاً. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: إنما هو ظن ظننته، إن كان يغني شيئاً فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله عز وجل: فلن أكذب على الله»[1].

وفي صحيح مسلم[2] من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر»

وفيه[3] من رواية عائشة وأنس: أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصاً - بسراً رديئاً - ما لنخلكم؟!. قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم.

فالقانون الذي يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذي تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفي العقل الإنساني في هذه الأمور هادياً ودليلاً. أما الوحي فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادىء العامة والضوابط. ثم يدع البشر يتصرفون تبعاً لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند طلحة حديث رقم ١٣٩٩ قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح وقد جاء في المسند مختصراً برقم ١٣٩٥ ورواه مسلم أيضاً برقم ٢٣٦١.

(٢) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج برقم ٢٣٦٢

(٣) رقم ٢٣٦٣.

٧ ـ النزول عند رأي الخبراء وأهل المعرفة:

ومن دلائل العقلية العلمية الحقة: النزول عند رأي الخبراء، وأهل الذكر، والمعرفة في كل فن من الفنون أو خبرة من الخبرات. وهذا ما هدى إليه القرآن في مثل قوله (فاسأل به خَبيرا)[١] (ولا يُنَبِّئُكَ مِثلُ خبير)[٢]

ففي الأمور الحربية، يجب الوقوف عند رأي الخبراء العسكريين، وفي الاقتصاد يؤخذ برأي الاقتصاديين، وفي الصناعة تحترم توصيات الصناعيين.. وهكذا.

وفي معركة بدر الكبرى، حيث التقى الرسول والمسلمون بالمشركين من قريش، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي، وخرج الرسول يبادرهم إلى الماء، حتّى جاء أدنى ماء بدر فنزل به.

وهنا يتقدم الحباب بن المنذر الأنصاري إلى النبي ﷺ، باقتراح يقول فيه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل: أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلُب[٣]، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»[٤].

---

(١) الفرقان: ٥٩.

(٢) فاطر: ١٤.

(٣) نغور: ندفن ونطمس. القلب بضم القاف واللام: جمع قليب وهو البئر

(٤) الحديث في سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٢ عن ابن إسحاق قال: فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب. الخ. قال الشيخ الألباني في تخريج «فقه السيرة» للغزالي وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بني سلمة (وايضا هؤلاء الرجال مجهولون، ولا ندرى أعاصروا الحباب أم لا) ووصل الحاكم هذا الخبر في المستدرك (جـ ٣/٤٢٧)، ولكنه لم يصححه. وأنكره الذهبي. ولكن وصله ابن حجر في الإصابة جـ١/٤٢٧ من طريق ابن إسحاق في السيرة. قال حدثني يزيد بن رومان عن عروة وغير واحد في قصة بدر فذكر قول الحباب. الخ وهذا السند إلى عروة صحيح، إلا أن الحباب مات في خلافة عمر وعروة ولد في أواخرها، فلم يدركه. فالحديث مرسل. ولكنه يعضده شهرة القصة بين الصحابة الذين أدركهم عروة، وهم كثرة، والذين كانوا يروون أسماء الغزوات لأبنائهم ـ كما أن للحديث شاهداً بإسناد ضعيف عند ابن شاهين كما في الإصابة أيضا، وقد نقلت كتب السيرة خبر الحباب، وتلقته بالقبول.

يريد الحباب بسؤاله أن يستوضح عن اختيار النبي ﷺ للمكان الذي نزل به: أهو بوحي من الله، فلا يسعه إلا السمع والطاعة والتنفيذ بكل دقة، أم هو من التدابير العسكرية التي يتخذها النبي ﷺ بوصفه قائداً للمعركة وإماماً للمسلمين؟ وفي هذه الحالة يستطيع أن يدلي بدلوه، ويشير برأيه، وبخاصة أنه خبير بالمنطقة، عالم بها وبقلبها كما ذكر ابن سعد[1].

وقدم الحباب مشروعه إلى النبي ﷺ فرحب به، ونزل عن رأيه الأول إليه، وقال بكل شجاعة ووضوح: «لقد أشرت بالرأي»... ووضع الاقتراح موضع التنفيذ.

واقترح عليه سعد بن معاذ بناء عريش له، يكون فيه، ويشرف على المعركة من بعيد فأثنى عليه خيراً، ونفذ اقتراحه[2].

وفي غزوة الأحزاب روي أن سلمان الفارسي أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فقبل النبي مشورته وبادر بتنفيذها.

ولهذا لما أقبل فرسان المشركين تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها[3].

ولا عجب أن يقتبس المسلمون من أساليب الفرس أو الروم أو غيرهم ما يمتنعون به من عدوهم، وما يمكنهم من النصر عليه، وكل ما يعود عليهم بالخير في حياتهم، فالوسائل لا حكم لها في ذاتها، وإنما لها حكم مقاصدها.

٨ ـ اقتباس كل علم نافع:

ويحث النبي ﷺ، على اقتباس كل علم ينفع الإسلام وأهله ولو كان من عند غير المسلمين، كما رأينا كيف استفاد من أسرى المشركين في بدر في تعليم أولاد المسلمين الكتابة، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه:

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٥ ط بيروت.

(٢) «سيرة ابن هشام» ج٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٣) «سيرة ابن هشام» ج١ ص ٢٣٥

« الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق بها »[1].

وقال علي رضي الله عنه: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين[2].

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية المحضة التي لا تصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنها قوانين كونية عامة يدين بها المؤمن والكافر، ويخضع لسنتها البر والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجاً في اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء، والفلك، والبصريات، والرياضيات، وغيرها من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان، والفرس، والروم، ولا سيما اليونان.

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التي تتصل بالدين والقيم والمفاهيم، وتؤثر في وجهة نظر دارسها إلى الله والطبيعة والإنسان والتاريخ والمجتمع.

ومن هنا أنكر النبي ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئا من صحائف أهل الكتاب من اليهود، لأن الله قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها التحريف والتبديل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشر، وأهواء الخلق، ففقدت الثقة بعصمتها، والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهي معصوم، ثابت النسبة إلى الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فرآه النبي ﷺ فغضب فقال: « أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن

---

(١) الحديث ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح.

(٢) « جامع بيان العلم » ج١/١٢١.

(٣) متهوكون: أي متحيرون، يعني هل أنتم متحيرون، أو مترددون في عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيكم؟

يتبعني »[١] .

وإنما غضب النبي ﷺ ، وتغير وجهه واشتد في إنكاره ، لأن الأمر هنا أمر دين لا يؤخذ إلا من الصادق المصدوق .

أما علوم الحياة وفنونها ، وما يهتدي إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر ، نأخذه من أي وعاء خرج ، ونلتمسه من الشرق أو الغرب ، ونقتبسه من المسلم والمشرك ، كما رأيناه ﷺ ، يستفيد من أسرى المشركين في محو الأمية ويأخذ بفكرة حفر الخندق حول المدينة وهي من أساليب الفرس ، ويستخدم المنجنيق في حصار الطائف ، ويخطب على المنبر وهو صنعة نجار رومي .

ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أموراً لم يكن للعرب بها عهد ، إنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم ، إذ رأوا فيها صلاحاً ونفعاً ، فها نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التاريخ ، وفكرة تدوين الدواوين .

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبي ﷺ ، أخذاً مما ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابي للمسلمين بعد الهجرة[٢] .

٩ ـ الحملة على الأوهام والخرافات :

وأهم من هذا كله ، الحملة المشددة المتكررة على الأوهام ، والخرافات ، والشعوذات ، التي كان لها في الجاهلية سوق نافقة ، ولها في ظل كثير من الديانات السماوية المحرفة والوضعية سماسرة ودعاة ، يقولون فيسمعون ويأمرون

---

(١) رواه أحمد كما في « ترتيب المسند » للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ـ كتاب العلم ـ رقم ٦٢ ونقل في تخريجه عن صاحب « التنقيح » أن رجاله رجال الحسن ، وهو عند أحمد . وابن ماجة عن ابن عباس ، وإسناده حسن ، وعن ابن حبان عن جابر أيضاً باسناد صحيح . وفي الباب عن عبدالله بن ثابت الأنصاري عند أحمد وابن سعد والحاكم في « الكنى » والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وعن جابر عند الدارمي .
الفتح الرباني ج١ ص ١٧٥ .

(٢) انظر : « التراتيب الإدارية » أو نظام الحكومة النبوية للكتاني ج١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

فيطاعون، ويدعون فيجابون، أولئك هم الكهنة والعرافون، والسحرة والمنجمون، الذين يزعمون أنهم قادرون على خرق سنن الكون، وهتك أستار الغيب، وكشف مكنونات الصدور.

وجاء الإسلام فأغلق ـ بقوة ـ هذه السوق المخربة، وحجر على تجارها المحترفين، وسماسرتها المخادعين، وصادر بضاعتها الزائفة، وأعلن في وضوح مشرق أن سنن الله في الكون لا تتبدل، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الخير كل الخير في احترام السنن، ورعاية قانون الأسباب والمسببات.

ولا غرو أن نقرأ في كتب السنة المشرفة مثل هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ، روى البخاري عن المغيرة بن شعبة. قال: كسفت الشمس يوم مات إبراهيم (ابن النبي ـ ﷺ ـ من مارية القبطية) فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته». وبذلك طارد الأوهام التي شاعت عند الناس في الجاهلية أن كسوف الشمس أو القمر إنما يحدث لموت عظيم أو نحو ذلك. وأثبت أنها آية من آيات الله، تجري على سنن الله.

وهذه جملة أخرى من الأحاديث النبوية: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر... الحديث»[1]

«ومن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»[2]، أي: علق على نفسه تميمة أو حرزاً، أو نحوه، مما يزعمون أنه بقي من الجن أو العين أو المرض.

«ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[3].

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، وقد ذكرنا أن الراجح ثبوت سماعه منه.

(٣) رواه البزار بإسناد جيد من حديث عمران بن حصين، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس ـ دون قوله ـ ومن أتى ـ الخ » بإسناد حسن كما في الترغيب حديث ٤٣٨٤، وقد روى البزاز الجملة الأخيرة من حديث جابر باسناد جيد قوي ترغيب ٤٣٨٨.

«من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد»[1].

«ومن أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»[2]

وعن ابن مسعود موقوفاً «من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً يؤمن بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[3].

والكاهن: هو الذي يخبر عن بعض المضمرات، فيصيب بعضها ويخطىء اكثرها، ويزعم أن الجن تخبره بذلك، والعراف: كالكاهن، وقيل: هو ساحر. وقال البغوي: العراف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، كالمسروق: من الذي سرقه؟ ومعرفة مكان الضالة، ونحو ذلك.

ومثل الكاهن والعراف: المنجم - وهو الذي يدعي معرفة الغيوب المستقبلة عن طريق النجوم ومالها من أسرار وتأثيرات في العالم الأرضي، وبعضهم يسمي المنجم كاهناً.

وفي الحديث «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»[4].

وليس المراد بعلم النجوم هنا: علم الفلك أو الهيئة - كما يسمى من قبل - والذي نبغ فيه كثير من علماء المسلمين، والذي اتسعت بحوثه وامتدت جذوره في هذا العصر، فهذا علم قائم على الملاحظة، والتجربة والقياس واستخدام الآلات، وبه استطاع الإنسان في عصرنا أن يصل إلى القمر، ويجلب منه بعض الأتربة والصخور ليحللها ويستفيد من ورائها.

(١) رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وفي أسانيدهم كلام. ذكره المنذري في مختصر السنن. والحاكم، وقال: صحيح على شرطيهما.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات كما في الترغيب: ٤٣٩٥.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث ابن عباس. وقال النووي في «الرياض» والذهبي في «الكبائر»: إسناد أبي داود صحيح. الفيض ج٦/ ٨٠.

وليس في هذا أي منافاة لحقيقة دينية، أو لقاعدة شرعية، أو لنص ثابت في قرآن أو سنة.

ولست أستدل لذلك بقوله تعالى في سورة الرحمن: (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفُذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) [الرحمن: ٣٣]. ولا أفسر السلطان هنا بالعلم كما ذهب إلى ذلك بعض علماء العصر.

فالواضح أن سياق الآية يدل بوضوح أن الخطاب في الآخرة لا في الدنيا، وهو خطاب تعجيز للثقلين من الجن والإنس: أنهم لا يستطيعون الفرار من قبضة العدالة الإلهية إلا إذا خرجوا من ملك الله، وأني لهم أن يخرجوا منه، وأين يذهبون؟ فمعنى «لا تنفذون إلا بسلطان» أي: لا تنفذون مطلقاً، لأنه لا سلطان لكم أمام سلطان الله تعالى.

أما الصعود إلى القمر فليس نفاذاً من أقطار السموات والأرض، كيف، وهو لا يزال في إطار المجموعة الشمسية، بل في أقرب كوكب منها إلى الأرض، وهو القمر؟ فإذا اعتبرنا الصاعد إلى القمر خارجاً من قطر الأرض كما هو الظاهر ـ حيث جعل القرآن القمر في السماء (وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) [الفرقان: ٦١] فإنه لم يخرج لحظة من أقطار السماء.

وأولى من ذلك الاستدلال بآيات التسخير للكون عامة وللشمس والقمر والنجوم خاصة. وهي كثيرة في القرآن الكريم.

والمقصود: أن علم النجوم المحرم الذي يعد شعبة من السحر هو: علم تأثيرها لا علم تسييرها كما قال العلماء[1].

هذه التعاليم التي ذكرناها، جديرة بأن تهيء أفضل مناخ نفسي وعقلي واجتماعي، لقيام فكر علمي وحياة علمية. وهذا ما رأينا مصداقه في الحضارة الإسلامية الشامخة المتوازنة، التي وصلت الأرض بالسماء، وجمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين المادة والروح.

---

(١) انظر: فيض القدير حـ ٣ ص ٢٥٦، حـ ٦ ص ٨٠.

١٠ - الطب نموذجاً لعناية الرسول بالعلم التجريبي:

وإذا أردنا أن نتخذ مثلاً أو نموذجاً لعناية الإسلام عامة والرسول خاصة بالعلم القائم على التجربة، فلن نجد أفضل من الطب نموذجاً يتجسد فيه موقف القرآن والسنة من هذه العلوم.

وحسبي أن أسجل في هذه السطور أهم المبادىء الأساسية التي جاء بها الإسلام، ووضع بها حجارة الأساس لقيام صرح مشيد لطب علمي سليم.

أولاً: قرر قيمة البدن وحقه على صاحبه «إن لبدنك عليك حقاً» وإذا كان حقه عليه أن يُطعمه إذا جاع، ويُريحه إذا تعب، ويُنظفه إذا اتسخ، فإن حقه عليه كذلك أن يداويه إذا مرض. ومعنى هذا أنه حق واجب لا يجوز أن يُهمل أو يُنسى لحساب حقوق أخرى منها حق الله عز وجل، كما بينت ذلك الأحاديث التي دعت إلى الاعتدال، وبينت أنه منهج الإسلام وسنة نبيه «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وبهذا أبطل الإسلام الفكرة السائدة في المذاهب الزهدية ـ مقاومة البدن وتعذيبه لترقية الروح ـ معتبراً أن كيان الإنسان بشقيه: الروح والبدن معاً.

ثانياً: حل مشكلة الإيمان بالقدر الذي كان يعتقده كثير من الناس منافياً للتداوي، وطلب العلاج، وهنا نجد أن النبي ﷺ، حين سُئل عن الأدوية التي تؤخذ للعلاج، والأسباب التي تتخذ للوقاية: هل ترد من قدر الله شيئاً؟

فكان جوابه البين الحاسم «هي من قدر الله»[١].

فبين بهذا الجواب أن الله يقدر الأسباب والمسببات جميعاً. فكما يقدر أن الداء تنتج من كذا أو كذا، يقدر أن دواءه يكون بكذا وكذا، وأن اتقاءه يكون بكذا وكذا، والمؤمن الفقيه من يدفع قدر الله بقدر الله كما يفر من قدر الله إلى قدر الله.

ثالثاً: فتح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى معاً ـ في إمكان الشفاء من

---

(١) رواه من حديث أبي خزامة الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، مع أن في اسناده ابن أبي خزامة، وهو مجهول، وباقي رجاله ثقات.

أي مرض كان، وقضى على اليأس المحطم للنفوس. ورفض فكرة الأمراض المستعصية على الشفاء. وجاء في ذلك جملة من الأحاديث:

« ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » رواه البخاري عن أبي هريرة.

« لكل داء دواء، فاذا أصاب دواء الداء بریء بإذن الله » رواه مسلم وأحمد عن جابر.

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: « نعم، فإن الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء. علمه من علمه وجهله من جهله » رواه أحمد عن أسامة ابن شريك.

فالدواء موجود فيما خلق الله، وما على أهل الاختصاص إلا أن يبحثوا ويجتهدوا، ولا يلقوا سلاحهم يأساً، فسيصلون يوماً إلى ما يريدون.

قال الإمام الشوكاني: في الحديث دليل على أنه لا بأس بالتداوي لمن كان به داء، قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له وأقروا بالعجز عنه ».

رابعاً: اعترف بسنة الله في العدوى، فقال ﷺ: « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وامتنع عن مبايعة مجذوم بوضع اليد في اليد. بل اعترف بالعدوى في عالم الحيوان أيضاً، فقال: « لا يوردن ممرض على مصح » والممرض صاحب الإبل المريضة بالجرب يجب أن يجنبها الاختلاط بالسليمة من الإبل ساعة ورود الماء.

وأما حديث « لا عدوى »: فمعناه أن الأشياء لا تعدي بطبعها وذاتها بل بتقدير الله تعالى وما وضع من سنن في خلقه.

كما سبق بإقرار مبدأ الحجر الصحي، أو العزل الصحي حين قال عن وباء الطاعون: « إذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه ». متفق عليه.

خامساً: قاوم ما يسمى (الطب الروحاني) طب الكهنة والسحرة، وأمثالهم من المتاجرين بعمل التعاويذ والتمائم والودع وغيرها مما شاع في الجاهلية، وكانت له سوق نافقة، أبطلها رسول الله ﷺ، واعتبرها من الشرك، وأعلن

عليها حرباً لا هوادة فيها، ولم يسمح من الرقي إلا بما فيه ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى، لأن هذا مجرد دعاء، وهو مشروع محمود.

سادساً: كان النبي ﷺ بقوله وعمله وتقريره أسوة حسنة في الهداية إلى الطب الصحيح، القائم على العلم والتجربة، لا على التهويل والادعاء.

فهو ﷺ تداوى لنفسه وأمر بالتداوي، لأن الذي خلق الداء خلق الدواء. وأرسل طبيباً إلى أبي بن كعب، فقطع له عرقاً وكواه عليه[1]، أي أنه أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتي الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور من ثقيف. قال ذلك لسعد بن أبي وقاص[2].

ولم يثبت إسلام الحارث. ولهذا استدل العلماء بما ذكر على جواز الاستعانة بأهل الكفر في الطب[3]، وإن كان الأولى أن يعالج المسلم مسلم مثله ولا سيما أن هناك أحكاماً شرعية كجواز الفطر في رمضان ونحوه تترتب على حكم الطبيب.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبي ﷺ رجلين من بني أنمار فنظرا إليه فسألهما رسول الله: «أيكما أطب، (أي: أحذق وأمهر؟»)
فقالا: أوفي الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الدواء الذي أنزل الداء»[4].

قال ابن القيم: في هذا الحديث إنه ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب![5].

سابعاً: جاء عنه ﷺ: «من تطبب ولم يُعلم عنه الطب فهو ضامن»[6]

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) التراتيب الإدارية للكتاني جـ١ / ٤٥٧

(٤) رواه مالك في الموطأ.
(٥) زاد المعاد جـ٣/٢٢٥.
(٦) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الحاكم صحيح، واقره الذهبي (انظر: فيض القدير جـ٦/١٠٦).

وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله، وحملهم مسؤولية أخطائهم في التشخيص والعلاج، واحترام أهل الاختصاص والخبرة. فلكل علم رجاله ولكل صناعة أهلها، ولا ينبئك مثل خبير.

وفي هذه المبادىء السبعة ما يكفي لإلقاء الضوء على موقف الرسول من الطب وهو موقف سبق عصر النهضة في الغرب بقرون، وقام على أساسه في عالم الإسلام طب نظري وعملي، كانت كتبه مراجع لأوروبا وغيرها عدة قرون، ويكفي في ذلك كتاب «القانون» لابن سينا، و«الحاوي» للرازي، و«الكليات» لابن رشد.

أخلاقيات العلم

إن العلم في نظر الإسلام ليس مجرد حشو الرؤوس بالمعلومات، مهما تكن قيمة هذه المعلومات من جلالة القدر في موضوعها، أو في طريقة ثبوتها، حتى العلم المقتبس من طريق النبوة ـ الذي هو العلم الأعلى ـ لا يكفي فيه محض اكتسابه وتحصيله، بل لا بد لصاحب العلم من الالتزام بالقيم الخلقية التي يفرضها العلم على أهله، والتي جعلتهم أهلاً لأن يكونوا خلفاء الأنبياء، وسنخص بالحديث هنا أبرز هذه الفضائل التي يجب أن يتخلق بها أهل العلم.

١ ـ الشعور بالمسؤولية:

وأولى هذه القيم: الشعور بالمسؤولية أمام الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه الرتبة. وعلى قدر المنزلة تكون المسؤولية.

عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه: ماذا عمل به[١]؟»

وكلما اتسعت دائرة علم الإنسان كلما عظمت مسؤوليته فليس من علم مسألة كمن علم عشراً أو مئة، وكما أن من كثر ماله كثر حسابه، وطال سؤاله، وعسر جوابه. فكذلك من كثر علمه واستبحرت معارفه، كانت مسؤوليته أكبر، وتبعته أثقل.

---

(١) رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له كما في الترغيب حديث ١٥٦٤.

فهو مسؤول عن علمه من عدة جوانب:

مسؤول عن صيانته وحفظه حتى يبقى، ومسؤول عن تعميقه وتحقيقه حتى يرقى، ومسؤول عن العمل به حتى يثمر، ومسؤول عن تعليمه لمن يطلبه حتى يزكو، ومسؤول عن بثه ونشره حتى يعم نفعه، ومسؤول عن إعداد من يرثه ويحمله حتى يدوم اتصال حلقاته، وقبل ذلك كله، مسؤول عن إخلاصه في علمه لله حتى يقبله منه.

وعن مالك بن دينار عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها - أظنه قال - ما أراد بها؟ »

وكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ثم يقول: تحسبون أن عيني تقر، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة: ما أردت به[1]؟

وكان أبو الدرداء الصحابي الفقيه الزاهد - رضي الله عنه - يقول: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر[2]، فأقول: لبيك رب! فيقول: ما عملت فيما علمت[3]؟

٢ - الأمانة العلمية:

ومن أخلاقيات العلم الأمانة فهي من لوازم الإيمان، ولا إيمان لمن لا أمانة له. قال تعالى في وصف المؤمنين: (والذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعون) [المؤمنون: ٨].

كما أن الخيانة من لوازم النفاق، فمن آيات المنافق البارزة: أنه إذا اؤتمن خان[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « تناصحوا في

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناد جيد.
(٢) اسم أبي الدرداء: عامر، وعويمر تصغير له.
(٣) رواه البيهقي. كما في الترغيب جـ١ حديث ٢١٥.
(٤) متفق عليه.

العلم، فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة[١]» .

وما ذلك إلا لأن الخيانة في المال ـ مهما عظمت ـ محدودة الضرر، أما الخيانة في العلم فقد تدمر مجتمعا بأسره .

ومن أمانة العلم إن ينسب القول لمن قاله، والفكرة لصاحبها، ولا يستفيد من الغير ثم يسند الفضل إلى نفسه، فإن هذا لون من السرقة وضرب من الغش والتزوير .

وفي هذا قال سلفنا : من بركة القول أن يسند إلى قائله . ولهذا نجد كتب السلف المتقدمين موثقة بالأسانيد التي عن طريقها وصلت الآراء والأقوال في مختلف العلوم . ولم يكن الإسناد في الحديث وعلوم الدين وحدها، بل شمل علوماً أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها .

ومن أمانة العلم أن يقف الإنسان عندما يعلم، وأن يقول لما لا يعلم: لا أعلم، فليس في العلم خجل ولا كبرياء، وأن يتقبل أي حقيقة أو فائدة علمية تأتيه، ولو على يد من هو أقل منه علماً، أو أصغر سناً، أو أدنى منزلة .

وحسبه أن رسول الله ـ ﷺ ـ سئل أمام الملأ من الناس عن الساعة، فقال بصريح العبارة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» وذلك في حديث جبريل المشهور .

وعن جبير بن مطعم: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي البلدان (يعني البقاع) أحب إلى الله؟ وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: «لا أدري، حتى أسأل جبريل عليه السلام»، فأتاه فأخبره جبريل: «إن أحب البقاع إلى الله المساجد وأبغض البقاع إلى الله الأسواق[٢]» .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات إلا أبا سعد البقال ـ أحد رواته ـ مه خلاف. انظر مجمع الزوائد: ١/١٤١، والترغيب جـ ١ حديث ٢٠٦

(٢) قال المنذري في الترغيب حديث ٤٧٠: رواه أحمد، والبزار، واللفظ له. وأبو يعلى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وإنما بغضت الأسواق لما يكثر فيها من الطمع والغش والحلف بغير الله، واللهو عن ذكر الله لا لكراهية التجارة أو البيع والشراء

فهذا هو موقف العالم الأمين: ألا يعيب من سأله، ولا يفتي من استفتاه إلا بما يستيقنه ويتبينه.

أما من أفتى بغير علم، أو أشار على من يستشيره بغير ما يعتقد، فقد خان الأمانة، واستحق من الله العقوبة. وفي الحديث، «من أُفتي (بصيغة المبني للمجهول) بغير علم كان اثمه على من أفتاه؛ ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه[1]».

وهكذا تعلم أصحابه - ﷺ - ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمة، فلم يهابوا أن يقولوا: لا ندري فيما لا يدرون، وأن يردهم من دونهم إلى الصواب، فيرجعوا جهرة غير متأففين، ولا مستكبرين، وأن يغيروا فتواهم إذا تغير اجتهادهم غير خزايا ولا متحرجين.

يقول الإمام محمد بن سيرين: لم يكن أحد بعد النبي - ﷺ - أهيب لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد لها من كتاب الله تعالى أصلاً، ولا في السنة أثراً، فقال: أجتهد رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني، وأستغفر الله[2].

وهذا عمر أمير المؤمنين ترده امرأة، وهو يخطب على المنبر في شأن صداق النساء، فلا يستنكف أن يخطىء نفسه على مرأى ومسمع من الناس قائلا: كل الناس أفقه من عمر[3]!

وأفتى عمر في المسألة المعروفة في الميراث بـ (الحمارية)، أو (المشتركة) في سنة فلم يشرِّك فيها، فلما كان العام المقبلِ شرك فيها، فلما قيل له في ذلك قال: تلك على ما قضينا، وهذي على ما قضينا. رواه الترمذي.

وهذا أمير المؤمنين (علي) أقضى الأمة، وحلال المعضلات، والبحر الذي

---

(١) رواه أبو داود، والحاكم عن أبي هريرة

(٢) ابن سعد وابن عبد البر في العلم كما في كنز العمال جـ ٢ حديث رقم ٤١٩٠

(٣) ذكرها ابن كثير في التفسير (١/٤٦٧/ط الحلبي) ونسبها إلى أبي يعلى وقال إسناده جيد وقوي

لا تكدره الدلاء، يقول: لا يستحيي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم.

وسئل يوماً عن مسألة فقال: لا علم لي بها. ثم قال: وابردها على الكبد. سئلت عما لا أعلم، فقلت: لا أعلم.[1]

وسأله رجل عن مسألة فأجابه. فقال الرجل: ليس هكذا يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال علي: أصبت وأخطأت «وفوق كل ذي علم عليم»[2]

٣ ـ التواضع:

ومن أخلاق العلماء: التواضع.

فالعالم الحق لا يركبه الغرور، ولا يستبد به العُجْب، لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له، ولا يصل أحد إلى قراره، وصدق الله العظيم إذ يقول: (وما أُوتيتُم من العلم إلا قليلاً) [سورة الإسراء].

كما أنه يعلم أن قافلة العلم والعلماء مديدة طويلة، ضاربة في أغوار الماضي، موصولة بالحاضر، ممتدة في المستقبل، وليس هو إلا واحداً منها، فلا ينبغي له أن يغمط فضل السابقين، أو ينكر جهد اللاحقين.

وليس هناك من أحاط بكل شيء علما إلا الله تعالى. أما الإنسان فهو يعرف شيئاً وتغيب عنه أشياء، ويعرف اليوم ما كان يجهل بالأمس، ويعرف اليوم ما ينساه في الغد، ويعرف الظاهر من الأشياء دون الباطن، والحاضر دون المستقبل

وأكثر الناس ادعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين، وأشباههم الذين لا يعرفون من العلم إلا القشور دون اللباب، والسطوح دون الأعماق.

وأما من اتسع أفقه، وعمق إدراكه، فهو يكتشف مع كل حقيقة جديدة

---

(١) كنز العمال جـ١ حديث رقم ١٤٣٧

(٢) نفسه رقم ١٤٣٦ وقال: رواه ابن جرير وابن عبد البر في العلم.

أنه يجهل أكثر مما يعلم، وأن العلم أكبر من أن يحاط به، وكفى بهذا الاعتراف علماً.

يقول الإمام الشافعي:

كلّما أدبني الدهـــر أراني نقص عقلي
أو أراني ازددت علماً زادني علمي بجهلي!

ذكر الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» تحت عنوان (الترهيب من الدعوى في العلم والقرآن) ما رواه الشيخان عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «قام موسى عليه الصلاة والسلام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي: الناس أعلم فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فاوحى الله إليه: أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب: كيف به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مكتل[1] فإذا فقدته فهو ثم... فذكر الحديث في اجتماعه بالخضر... إلى أن قال: - فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول[2]... فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»! والعلم في هذه العبارة الأخيرة بمعنى المعلوم.

وهذا ما أراد عبد الله الخضر أن يؤكده لكليم الله موسى عليه السلام: أن علم البشر لا يعد شيئاً يذكر بالنسبة إلى علم الله تعالى.

وهذا ما جعلَ فحول العلماء من فرسان علم الكلام، الّذين حصلوا أفكار المتقدمين والمتأخرين، والذين حاولوا يوماً ما الغوص إلى كنه الحقائق الكبرى، فلم يحصلوا في النهاية على طائل، وهلك منهم الظهر، وانقطع بهم

(١) مكتل بوزن منبر - وعاء يشبه الزنبيل يسع ١٥ صاعاً.
(٢) أي: بغير أجر ينال ويعطى.

الطريق، وقال في ذلك قائلهم وهو فخر الدين الرازي إمام المتكلمين في عصره، وصاحب التفسير الكبير، والكتب المشهورة في الكلام والأصول:

العلم للرحمن جل جلالـه ... وسواه في جهلاته يتغمغـم

ما للتراب وللعلـوم، وإنما ... يسعى ليعلم أنـه لا يعلم؟

وقد روي مثل هذا عن عدد من الكبار مثل البلاقاني وإمام الحرمين والشهرستاني وغيرهم.

وقد جاء في الحديث ذم أولئك المدعين المغرورين المنتفخين بما قرؤوا، أو حصلوا من علم. ولو كانوا علماء حقاً لعرفوا قدر أنفسهم. وأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا. بل أقل من القليل.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟: من أفقه منا؟» ثم قال لأصحابه: «هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال أولئك منكم من هذه الأمة، أولئك هم وقود النار[1]».

وإذا رزق العالم التواضع، وقف عند حده، وأنصف غيره، وعرف له حقه، ولم يتطاول على الناس بالادعاء الباطل.

روى أبو عمر بن عبد البر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس قال: لما حج أبو جعفر المنصور دعاني، فدخلت عليه فحدثته، وسأل فأجبته، فقال: إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها - يعني الموطأ - فتنسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، لا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

---

(١) قال المنذري في الترغيب حديث رقم ٢٢٩ رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد لا بأس به ورواه أبو يعلى والبزار والطبري أيضا من حديث العباس بن عبد المطلب وذكر المنذري حديثاً آخر عن ابن عباس مرفوعا بعد شاهداً له وقال فيه رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن إن شاء الله تعالى

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف الناس: أصحاب رسول الله - ﷺ - وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل بلد لأنفسهم.

فقال أبو جعفر: لعمري لو طاوعني على ذلك لأمرت به، قال أبو عمر بعد ذكر هذه القصة: وهذا غاية في الإنصاف لمن فهم[1].

وروى بسنده إلى عبد الرحمن بن القاسم أنه قال لمالك: ما أعلم أحداً أعلم بالبيوع من أهل مصر. فقال له مالك: وبم ذلك؟ قال: بك. قال: فأنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بي؟![2].

هذا هو موقف العلماء حقاً: تواضع لله: وإنصاف من النفس، وتقدير لموقف الآخرين، والتماس الأعذار لهم.

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - قال: «إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس، فهو أهلكهم»[3].

وذلك إذا دلت حاله على أنه يقول ذلك إعجاباً بنفسه، وتيهاً بعلمه أو عبادته، واستصغاراً لشأن الآخرين، وازدراء لما هم عليه.

وقد رويت كلمة (أهلكهم) بضم الكاف وفتحها، ومعناها على الضم، أنه أشدهم هلاكاً، وأحقهم بالهلاك أو أقربهم إليه، لذمِّهِ للناس وذكره عيوبَهُم، وتكبره عليهم. وأما بالفتح فهو فعل ماض «أهلكهم»، أي: جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا حقيقة، أو أهلكهم، لأنه أقنطهم من رحمة الله، وأيأسهم من غفرانه.

قال الغزالي: إنما قاله، لأن هذا القول يدل على أنه مزدر لخلق الله، مغتر

---

(١) «جامع بيان العلم» جا ص ١٥٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) رواه أيضاً مالك، وأحمد والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود.

بالله، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وقهره، حيث رأى الناس هالكين ورأى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك. ويكفيه شراً احتقار الغير. فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله بالدنو منه، وهو متمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، بأنه يترفع عن مجالستهم، فما أجدره بالهلاك[1].

٤ - العـــزة:

ومن أخلاق العلماء: العزة التي هي من أخص فضائل المؤمنين (ولله العِزَّةُ ولرسُولِه وللمؤمنين) [المنافقون: ٨]، والعلماء هم صفوة المؤمنين.

والعزة شيء غير الغرور أو العجب أو الكبر، وهي لهذا لا تنافي فضيلة التواضع التي تحدثنا عنها.

هي عزة في مواجهة المستكبرين بالسلطان، أو المتعالين بالثروة، أو المزهوين بالقوة، أو المفاخرين بالنسب، أو المكاثرين بالعدد، أو غير ذلك من أعراض الدنيا.

فهي عزة بالعلم والإيمان، وليست عزة بالإثم والعدوان، عزة تلتمس من الله ولا تطلب من الناس، ولا عند أبواب السلاطين (من كان يُريد العِزَّةَ فلله العِزَّةُ جميعاً) [فاطر: ١٠].

سأل الحجاج خالد بن صفوان: من سيد البصرة؟ فقال له: الحسن البصري فقال: وكيف وهو مولى؟ أي ليس من قبائل العرب ذوي الحسب. فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنى عن الناس في دنياهم، وما رأيت أحداً من أشراف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول في حلقته إليه. يستمع قوله ويكتب علمه قال: هذا والله السؤدد[2]

والاستغناء شعور قبل أن يكون ملكاً لأشياء، فإن من الناس من يملك القناطير المقنطرة وهو فقير النفس، ممدود اليد إلى الغير، وآخر صفر اليدين،

---

(١) فيض القدير ٣٧٨/١

(٢) «جامع بيان العلم» جـ ٧٤/١ و٧٥.

وهو يشعر بأنه أغنى من قارون. وفي الحديث: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس».[1]

هذا الغنى النفسي هو الذي صوره الإمام الشافعي فيما ينسب إليه من شعر قوي عميق:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب	وفيضي آبار تبريز تبرا!
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً	وإذا مت لست أعدم قبرا!
همتي همة الملوك ونفسي	نفس حر ترى المذلة كفرا!
وإذا ما قنعت بالقوت عمري	فلماذا أهاب زيداً وعمرا؟!

ولما دخل أبو حازم على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بطلب منه ـ وسأله فأجابه بقوة المؤمن، وعزة العالم، دون مجاملة في الحق، ولا مداهنة في الدين، فأعجب به الرجل، وقال له:

هل لك أن تصحبنا ـ يا أبا حازم ـ فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله! قال له سليمان: ولم ذاك؟ قال: أخشى أن أركن شيئاً قليلاً، فيذيقني الله ضعف الحياة، وضعف الممات... وقال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك ـ قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة! قال: ليس ذلك إليّ. قال: فما لي إليك حاجة غيرها.[2]

هذه هي عزة العلماء! عزتهم لأنهم يحفظون في صدورهم كلمات الله، ويحملون في أيديهم مصابيح الهداية، ويملكون في خزائن قلوبهم أغلى الكنوز، وأثمن الثروات، وأشرف المواريث، وهو تراث النبوة، التي بغيرها يعيش الخلق في تيه المادية، وظلام الجاهلية، وضلالات الأهواء والأوهام. فمن أقوم منهم قيلاً، وأهدى سبيلاً؟

ولهذا روي في الحديث: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله تعالى».[3]

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه جـ١/١٢٥.

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف.

وإذا كانت النبوة أشرف المواريث التي تنقطع دونها أماني الخلق، فإن المرتبة التي تليها في الشرف والفضل هي رتبة وارثيها، وهم العلماء.

ويقول عمرو بن العاص: من قرأ القرآن، فقد أدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه!

ومفهوم كلمة «قرأ القرآن» في الحديث، وفي عرف الصحابة والقرون الأولى لا يعني مجرد استظهاره، وحفظ كلماته وحروفه دون تدبر له، ولا فهم لمعانيه وأسراره، وأحكامه، إنما تعني القراءة: العلم والفقه، ولهذا كان العلماء يسمونهم (القراء).

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

أخذ هذا المعنى أحد الشعراء فقال:

إن الأكابر يحكمون على الورى ... وعلى الأكـابـر يحكـم العلماء!

وهذا هو الوضع الصحيح للعلماء: إن كلمتهم هي العليا، لأنها قبس من كلمة الله، هم الموجهون للحياة وللناس، إلا إذا انقلبت الأوضاع، ورضي العلماء أن يسيروا في ركاب الأمراء. ورحم الله القاضي الجرجاني الذي قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانَهُـم ... ولو عظموه في النفـوس لعظما

ولكن أهانوه فهـان، ودنسـوا ... محيـاه بـالأطماع حتى تجهما

٥ ـ العمل بمقتضى العلم:

ومن أخلاقيات العلم الأصيلة في الإسلام: العمل بمقتضى العلم، على معنى أن يكون هناك صلة بين العلم والإرادة، فإن آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل، أو يعمل بضد ما يعلم.

كالطبيب الذي يعرف ضرر مأكول أو مشروب على صحته، ولا يفتأ يتناوله استجابة لداعي الشهوة أو العادة.

وعالم الأخلاق الذي يرى سلوكاً معيناً رذيلة وهو مقيم عليه، متماد فيه، وعالم الدين الذي يرى عملاً ما منكراً، وقد ينهى الناس عنه، وهو يقترفه!

إن هذا النوع من العلم النظري البحت لا يرضى عنه الإسلام. وربما كان الجهل في تلك الحال خيراً منه.

إن العلم الحق هو الذي ينير بصيرة صاحبه، ويجسم أمام عينيه الجزاء، فيبدو البعيد قريباً، والغائب حاضراً، والآجل ناجزاً، فتقوى عزيمته على البر والتقوى، وتضعف رغبته في الإثم والفجور.

وقد جاء في حديث أبي كبشة الأنماري عن النبي - ﷺ - قال:

« إنما الدنيا لأربعة نفر:

١) عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

٢) وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء.

٣) وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً: يخبط في ماله بغير علم، ولايتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

٤) وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء »[1].

وهنا نرى أثر العلم واضحاً في سلوك صاحبه في ماله، فهو « يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً » فهذا هو الغني الشاكر، وهو بأفضل المنازل كما جاء في الحديث.

فإذا حرم المال ورزق العلم، عاش والخير ملء جوانحه، لا يمارسه عملاً، ولكن يعيشه نية وأملاً. فهو بنيته، فأجره وأجر الغني الشاكر سواء.

فأما من حرم العلم، سواء رزق المال أم لا، فعاقبته ما ذكر الحديث

(١) رواه احمد، والترمذي واللفظ له. وقال: حديث حسن صحيح. الترغيب حديث رقم ٢٠

الشريف: أخبث المنازل. سواء عاش في السوء أم بنيته.

والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك، ولكنه نور يقذفه الله في قلب عبده، فيمنحه اليقين والرسوخ، ويبعد به عن القلق والاضطراب، وهذا هو العلم النافع.

العلم النافع حقاً هو الذي يرى الناس أثره على صاحبه: نوراً في الوجه، وخشية في القلب، واستقامة في السلوك، وصدقاً مع الله، ومع الناس، ومع النفس.

أما مجرد التشدق بالكلام المزوق، والثرثرة بالقول المعسول من طرف اللسان، دون أن يصدق القول العمل، فهذا هو شأن المنافقين الذين يقولون مالا يفعلون، ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ويقرؤون الأحاديث.

وهو ما أنكره القرآن على بني إسرائيل: (أتَأمُرون الناسَ بالبر وتنسَون أنفُسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تَعقِلُون) [البقرة: ٤٤].

كأنما يشير القرآن أن مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، ضرب من الجنون، أو لون من الفصام الذي لا يليق بالعقلاء. وقال تعالى: (يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ كَبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [الصف: ٢، ٣].

ومن قرأ الأحاديث النبوية في هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الذي يتهدد هذا الصنف من حملة العلم، الذين سماهم الإمام الغزالي: «علماء الدنيا».

عن أسامة بن زيد أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[1]، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمر

(١) أقتابه: أمعاؤه. وتندلق: تخرج من مكانها

بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه».

قال: وإني سمعته يقول - يعني النبي ﷺ - «مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»[1].

هؤلاء الذين يُحسنون الكلام ولا يحسنون العمل، وينتسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه. يكونون فتنة على الأمة، لأنهم موضع القدوة.

وهناك صنفان إذا صلحا صلح الناس، وإذا فَسدا فسد الناس، الأمراء والعلماء[2]. ورحم الله الشاعر الذي قال:

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملحَ إذا الملحُ فسد؟!

وهذا ما كان يخافه النبي ﷺ على أمته، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حذرنا رسول الله - ﷺ - كل منافق عليم اللسان[3].

وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان»[4].

وعن علي بن أبي طالب مرفوعاً: «إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً. فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان. يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون»[5].

وعن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ - «العلم علمان: علم في القلب،

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢) روي هذا مرفوعاً من حديث ابن عباس بسند ضعيف، أخرجه ابن عبد البر، وأبو نعيم في الحلية، كما في تخريج الإحياء.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (١٨٧:١): رواه البزار، وأحمد، وأبو يعلى ورجاله موثقون. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. انظر: الحديث ١٤٣ و٣١٠ من المسند.

(٤) رواه الطبراني في الكبير، والبزار ورواته محتج بهم في الصحيح، كما في «الترغيب» حديث ٢٢٤

(٥) قال في (الترغيب) رقم ٢٢٣: رواه الطبراني في الصغير، والأوسط من رواية الحارث وهو الأعور - وقد وثقه ابن حبان وغيره . اهـ، والحارث ضعيف ولكن يشهد له الحديثان قبله.

فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم»[1].

فعلم المرء إما حجة له ـ وذلك إذا عمل به ـ وإما حجة عليه إذا أصبح مجرد حامل له. شأن اليهود الذين حُمِّلوا التوراة كلاماً، ولم يحملوها عملاً والتزاماً، فكانوا كما قال تعالى: (مثل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْمِلوها كمثل الحمار يَحْمِلُ أسفاراً) [الجمعة: ٥] أو كذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، ولم يرتفع بها من حضيض المادية في التفكير والحيوانية في السلوك، (ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه، فمَثَلُهُ كمثَل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) [الأعراف: ١٧٦].

ومن ثم كان رسول الله ـ ﷺ ـ يستعيذ بالله من العلم الذي لا ينفع، وهو العلم الذي ينفصل عن الأخلاق، لأنه يصبح وبالاً على صاحبه، وقديكون وبالاً على من حوله كذلك.

فعن زيد بن أرقم أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[2].

هذا النوع من العلماء الذين تكذب أفعالهم أقوالهم، وسريرتهم علانيتهم، يمثلون فتنة لجمهور الناس، لأن الناس يتأثرون بالحال أكثر من التأثر بالمقال، حتى قيل: حال رجل في ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل في رجل.

ومهما حاولت أن تقول للناس: خذوا من العالم علمه، ودعوا عمله. أو كما قال الشاعر:

اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي   ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري!

فإن الناس لن يسمعوا لك.

وفي هذا روي عن الإمام علي رضي الله عنه قوله: «قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك. ذاك يغرهم بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!»

(١) قال في الترغيب (١٣٩): رواه الحافظ أبو بكر الخطيب بإسناد حسن، وابن عبد البر في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح.

(٢) رواه مسلم، والترمذي، والنسائي.

ويزداد خطر هذا الصنف إذا أصبحوا أبواقاً لأمراء السوء، وحكام الجور، يزينون لهم قبيح ما يصنعون، ويجرئونهم بفتاويهم على التمادي فيما هم فيه سائرون.

وهذا ما أفسد الأديان من قبل، وما شكى منه المخلصون المصلحون من بعد يقول الإمام عبد الله المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي اللب إنتانها

وفي حديث رواه أبو الدرداء مرفوعاً:

«أنزل الله في بعض الكتب، أو أوحى إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش (جلود الضأن) وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر. إياي يخادعون، وبي يستهزؤون: بي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران»[1].

الحرص على نشر العلم:

ومن أخلاق العلماء: الحرص على نشر العلم وتبليغه ونفع الناس به، فلا خير في علم يكتم، كما لا خير في مال يكنز، فإنما جعل العلم لينشر، كما جعل المال لينفق.

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحض أصحابه على تبليغ ما يسمعونه منه، لينتفع به من بعدهم زماناً، ومن وراءهم مكاناً.

ففي حجة الوداع ألقى بيانه العظيم عن الإسلام ثم قال في ختامه: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»، (متفق عليه من حديث أبي بكرة).

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «بلغوا عني ولو آية» رواه البخاري في صحيحه باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

(١) «جامع بيان العلم» جـ١ ص ٢٣١/٢٣٢.

وروى ابن مسعود مرفوعاً « نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع »[1].

وعن زيد بن أرقم مرفوعاً: « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه »[2].

وهذه الأحاديث وما في معناها هي التي جعلت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يحرصون على تبليغ ما يحملون في صدورهم من علم النبوة، حتى إن أبا ذر نهاه الخليفة الثالث عثمان عن الفتيا، ولكنه ـ رغم إيمانه بوجوب طاعة الإمام ـ رأى أن طاعته في هذا الأمر خاصة غير ملزمة، لأن أمر الرسول بالتبليغ أقوى من نهي الإمام عن الفتيا.

ولما اجتمع عليه الناس في موسم الحج يستفتونه وقف عليه رجل من قريش، ثم قال له: ألم تُنه عن الفتيا؟

فرفع رأسه إليه فقال: أرقيب أنت عليّ؟ لو وضعتم الصمصامة (يعني السيف الصارم الذي لا ينثني) على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ـ ﷺ ـ قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها »[3].

ويقوي موقف أبي ذر: الآيات والأحاديث التي حذرت أبلغ التحذير من كتمان العلم، واحتجازه عمن ينتفع به من الناس وخصوصاً عند الطلب والسؤال.

وكان أبو هريرة يقول: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا. ثم يتلو: (إن الذين يكْتُمون ما أنزلنا من

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه ومعنى نضر « حم » وزنه من النضرة وهي البهجة والحسن كما في الترغيب حديث ١٥٠

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كما في الترغيب حديث رقم (٥) وله شاهد من حديث جبير بن مطعم عند أحمد وابن ماجه والطبراني، الترغيب (١٥٣).

(٣) رواه البخاري معلقا في كتاب العلم من صحيحه. وقال الحافظ في الفتح ١/١٧٠. روياه موصولاً في مسند الدارمي وفي الحلية. ومعلوم أن ما علقه البخاري بصيغة الجزم له حكم الصحة لدى جمهور العلماء

البينات والهدى من بعد ما بيَّنّاهُ للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) [البقرة: ١٥٩ ، ١٦٠].

ومثلها قوله تعالى: (وإذ أخذَ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتابَ لتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه) [آل عمران: ١٨٧].

وروى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[١].

ونحوه من حديث ابن عباس أيضاً[٢].

ومن حديث عبد الله بن عمرو: «من كتم علماً ألجمه الله...» الحديث[٣]

قال الإمام ابن الأثير في «جامع الأصول»:

الممسك عن الكلام ممثّل بمن ألجم نفسه بلجام.

والمعنى: أن الملجم نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم، يعاقب في الآخرة بلجام من نار.

وذلك في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافراً يريد الإسلام فيقول: علموني: ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن جاء مستفتياً في حلال، أو حرام، فيقول: أفتوني، أرشدوني، فإنه يلزم في مثل ذلك أن يعرف الجواب، فمن منعه استحق الوعيد، وليس الأمر كذلك في نوافل العلم التي لا يلزم تعليمها[٤].

وإنما قال ابن الأثير ما قال، لأن وقت العالم وجهده لا يتّسعان لتبليغ كل

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والبيهقي ورواه الحاكم بنحوه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. الترغيب/حديث ١٩٩.

(٢) رواه أبو يعلى، ورواته ثقات يحتج بهم في الصحيح والطبراني في الكبير والأوسط بسند جيد. الترغيب ٢٠١

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح لا غبار عليه. الترغيب حديث ١٠٠ وذكر المندري أن حديث الوعيد على كتمان العلم قد روي عن جماعة من الصحابة غير من ذكر منهم.

(٤) جامع الأصول جـ٨ ص ١٢ حديث رقم ٥٨٣٧.

علم وإجابة كل سائل، فحاجة المتعلم، وأهلية العالم، وطاقته، وأهمية الموضوع، ووجود من يقوم بالأمر عداه أو عدمه، كل هذا يحدد: متى يجب الجواب ومتى لا يجب.

وإني ألمح في الحديث أن الوعيد إنما هو لمن ألجم نفسه عن الكلام، أي: تعمد السكوتَ طمعاً أو خوفاً من الناس وبهذا يكتم الشهادة «ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؟» [البقرة: ١٤٠].

وهذا ما أنكره القرآن على أهل الكتاب (وإذ أخذ الله ميثاقَ الذين أُوتوا الكتابَ لتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون) [آل عمران: ١٨٧].

على أن نوافل العلم أيضاً يلزم نشرها، وتبليغها لأهلها بأي وسيلة من وسائل النشر والتبليغ شفاهاً أو كتابة، فالقلم أحد اللسانين، ولا سيما إذا جاء من يطلبها حرصاً عليها ورغبة فيها، فلا يسع من يحملها إلا أن يؤديها كما أديت إليه، حتى يتوارث العلم ويحيا.

وهذا من فروض الكفاية.

وقد يتعين على بعض العلماء لأهليته الخاصة للإفادة.

ولهذا كان بعض الصحابة يبلغون بعض أحاديث سمعوها من رسول الله ﷺ وخشوا أن يفهمها الناس على غير وجهها، فيخبرون بها في اللحظات الأخيرة من حياتهم تأثماً، وتحرجاً، أن يموتوا فتموت الحقيقة العلمية معهم.

فعن أبي أيوب الأنصاري أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم حديثاً سمعته من رسول الله - ﷺ - وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسي: سمعته يقول «لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقاً يذنبون فيغفر الله لهم»[1].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - ومعاذ رديفه على حمار قال:

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة. باب سقوط الذنوب بالاستغفار حديث رقم ٢٧٤٨، والترمذي في كتاب الدعوات باب رقم ١٠٥ حديث ٣٥٣٣ وروى مسلم نحوه من حديث أبي هريرة أيضاً رقم ٢٧٤٩

« يا معاذ بن جبل » : قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ـ ثلاثاً ـ قال: « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار » . قال: يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: « إذن يتكلوا . . » وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً »[1] .

وهكذا كان تلاميذ الصحابة ومن تبعهم بإحسان أحرص الناس على نشر العلم وتعليمه ومدّ أشعته في الناس ، فإذا لم يجدوا من يأخذ عنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، أو فكروا في الرحيل إلى بلد آخر .

قال عطاء : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي فقلت: ما يبكيك ؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء !

وحكوا عن سفيان الثوري : أنه لما قدم عسقلان مكث لا يسأله إنسان . . . فقال: اكروا لي ، (أي راحلة) لأخرج من هذا البلد . هذا بلد يموت فيه العلم .

وذكر ذلك الغزالي في « الإحياء » ثم قال: إنما فعل ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به .

مسائل وملاحظات تتعلق بكتمان العلم ونشره:

وهنا عدة مسائل « تتعلق » بكتمان العلم ونشره ، ينبغي لنا أن نعرض لها ، ونلقي بعض الضوء عليها .

متى يجوز حجب بعض المعلومات؟

الأولى: إن من حق العالم أن يحجب بعض المعلومات عن بعض الناس ، لمصلحة يراها ولو سئل عنها ، لما يترتب على بثها من ضرر أكبر من نفع العلم بها

وقد يدع الجواب عن مسألة تأديباً للسائل المتعنت ، أو إرشاداً له إلى

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم: باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا

الاشتغال بما هو أهم وأنفع، أو غير ذلك من الاعتبارات.

وفي الصحيح: «كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع»[(١)].

وعن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله - ﷺ - وعائين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[(٢)] يكني بذلك عن القتل.

قال الحافظ ابن حجر: حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تعيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم.

وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم كقوله: «أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان» يشير إلى خلافة يزيد، وقد استجاب الله له فمات قبلها بسنة[(٣)].

حكم إعارة الكتب:

الثانية: قال بعض العلماء: يشمل الوعيد - على كتمان العلم - حبس الكتب عن الطالب لا سيما عند عدم التعدد. قال: والابتلاء بهذا كثير[(٤)] ا هـ.

ومقتضى هذا وجوب إعارة الكتب لطلاب العلم إذا احتاجوا إليها، ذلك لأن منعها - فيما أرى - يدخل أيضاً في باب منع الماعون، المتوعد عليه بالويل في كتاب الله. وهو أيضاً أشبه بكنز المال، وعدم الإنفاق منه في سبيل الله، وفيه من الوعيد ما فيه. ولكن وجوب هذا في رأيي مقيد بشروط:

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم باب حفظ العلم.

(٣) نقل الحافظ أيضاً عن ابن المنير قوله: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين، قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله: «قطع..» أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية، ما وسعه كتمانها، لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد - مع الصنف المذكور - ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به» أ هـ «الفتح» جـ ١/٢٢٧ ط الحلبي.

(٤) نقله العلامة القاري في شرح «المشكاة» عن السخاوي في «المقاصد الحسنة» انظر المرقاة جـ١/٢٣٥

(١): أن يكون طالب الكتاب في حاجة حقيقية إليه لا يغني عنه غيره.

(٢): ألا توجد مكتبات عامة يمكنه استعارة الكتاب منها خارجياً أو داخلياً.

(٣): ألا يستطيع شراء الكتاب، لعدم وجوده في السوق، أو لعجزه عن شرائه.

(٤): ألا يكون معروفاً بالإهمال وإضاعة الكتب أو تعريضها للتلف.

(٥): ألا يكون صاحب الكتاب في حاجة إليه، لأن حاجته مقدمة على حاجة غيره. وفي الحديث: «ابدأ بنفسك» وفي آخر «ابدأ بمن تعول».

حق التأليف والنشر:

الثالثة: ذهب بعض العلماء في عصرنا إلى أن من موجب الكتمان المحرم أن يمنع المؤلف نشر كتابه إلا بإذن منه، وتعاقد معه، وأخذ أجرة عليه، وإنما يجب أن يمنحه لمن شاء طبعه، ونشره دون حجر ولا احتكار، وبغير مقابل.

وأنكروا ما اصطلح الناس في عصرنا على تسميته حقوق التأليف أو النشر أو التوزيع وهذه قضية هامة وعامة، تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، لم أفرغ له.

ويشبه الكلام في هذا الموضوع ـ إلى حد كبير ـ ما ثار من جدل قديم بين الفقهاء حول القربات الدينية وأخذ الأجرة عليها مثل: الأذان والإمامة في الصلوات، وخطبة الجمعة، والوعظ والتذكير بالمساجد، ونحوها، مما هو في الأصل واجب ديني يجب على المسلم أن يفعله احتساباً، ويقوم به من غير مقابل مادي، تقرباً إلى الله تعالى بأداء الواجب.

وقد انتهى هذا الجدل والخلاف باتفاق المتأخرين من علماء المذاهب على جواز أخذ الأجرة، لتغير الزمان، وخوفاً على هذه الأعمال الدينية أن تتعطل، ولا تجد من يتطوع للقيام بها، فاقتضت مصلحة الدين وعمارة بيوته واستمرار اقامة شعائره، إباحة أخذ الأجرة.

على أن مما يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور:

أولاً: أن الكتاب ملك لمؤلفه، ولهذا ينسب إليه، ويحسب عليه، ويحاسب على أخطائه. وملكيته هنا ملكية علمية أدبية. وهو أمر اعترف به العالم كله في قوانينه المدنية.

ولا ريب أن من ملك شيئاً أصبح حر التصرف فيه، وأصبح من حقه الانتفاع بثمراته، وهذه من لوازم الملكية. فإذا كان من يملك بيتاً له الحق أن يسكنه أو يؤجره أو يبيعه، فكذلك من يملك كتاباً.

ثانيا. أن الكتاب العلمي لا يأتي عفواً، إنما هو ثمرة كفاح طويل، كون به صاحبه شخصيته العلمية، ثم هو نتيجة جهد جهيد، وسهر بالليل، وعرق بالنهار لا يعرفه إلا من عاناه، وربما استغرق الكتاب من صاحبه سنين حتى يبرز إلى حيز الوجود، أو قل حتى تأتي ساعة المخاض، فهو إذن كسب من وراء عمل طويل مختزن في كتابه، كما أن المصنع أو العمارة ثمرة جهد طويل، اختزنه فيها منشيء المصنع أو صاحب العمارة.

ثالثاً: أن حياة العالم المؤلف ليست حياة سهلة، كحياة سائر الناس، إنها حياة تتطلب جهداً خاصاً زائداً على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات خاصة زائدة أيضاً على نفقات الآخرين.

فالعالم المؤلف يحتاج إلى مكتبة غنية بالمصادر المهمة ويحتاج إلى من يساعده في النقل أو التبييض أو الطباعة، ويحتاج لمن يساعده في شؤون أسرته حيث لا يمكنه أن يتفرغ لأمورهم ورعايتهم، كما يتفرغ سائر الناس. وبدون هذا لا يستطيع أن ينتج علماً حقيقياً. فأنى له أن يغطي هذه النفقات، وإن كان موظفاً في جامعة أو وزارة أو مؤسسة، إن لم يكن له من مؤلفاته ما يعطيه بعض العوض؟

رابعاً: أن المؤلف قد يصدر طبعة من كتاب، ثم يتراءى له بعد صدوره أشياء تقتضيه أن يضيف أو يحذف أو يعدل، بناء على اطلاع جديد أو تغير اجتهاد أو اقتراح مقبول، او غير ذلك.

فإذا لم يعلم الطابع أو الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات، وتنقيحات فإنه سينشر الكتاب على ما كان عليه، ويلزم المؤلف ما لم يعد يلتزمه.

وقد كان علماؤنا قديماً لا يستبيحون رواية كتاب عالم ما إلا (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماء يعطي بعض طلابه (إجازة خاصة) برواية كتاب معين. وأحياناً يمنحه (إجازة عامة) برواية كتبه كلها.

وهذه الإجازة تشبه حق الطبع أو النشر في زمننا، أضيف إليها عنصر جديد وهو: أن المؤلف يتقاضى أجراً على جهده في التأليف، ويشارك الناشر في جزء من الربح الذي يصيبه من وراء نشر الكتاب.

ولكن الأمر الذي يجب تأكيده والتشديد فيه حقاً هو ألا يستغل الناشرون والمؤلفون حاجة القراء إلى كتاب ما، فيغالوا في سعره، كما في كثير من الكتب الجامعية، والكتب التي يقبل عليها الجمهور، فزيادة الأسعار بمالا يتغابن الناس في مثله غير مشروع.

التَّعَلُّم وَآدَابــهُ

ضرورة التعلم:

يولد الإنسان غفلاً من العلم، ولكن الله سبحانه وتعالى فطره على حُبِّ المعرفة واستطلاع ما يجهل، ووهب له من أدوات العلم ما يستطيع به أن يعرف نفسه ويطل على الوجود من حوله، يقول تعالى: (والله أخرجكُم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكُم السمعَ والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) [النحل: ٧٨].

وبهذا استطاع الإنسان أن يتعلم، ويكتشف سنن الكون وحقائق الوجود عن طريق السمع والرواية، وعن طريق البصر والملاحظة، وعن طريق الفؤاد والتفكير. وهي الوسائل التي استودعها الله الإنسان، وسيسأل عنها أمام الله تعالى: (ولا تَقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً) [الإسراء: ٣٦].

وبهذه الوسائل يتمكن الإنسان أن يكتسب علم الدنيا، وأن يحصل علم الدين، إذا شحذ همته لطلب العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا عن التعلم.

هكذا قضت سنة الله: أن السماء لا تمطر على الإنسان علماً، وهو قاعد في بيته. إنما يدرك العلم مَن طلبه، وعانى في تحصيله

وهذا ما نطق به الحديث النبوي الشريف: «يا أيها الناس تعلموا. إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1].

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» جـ١ ص/١٧٠: أورده ابن أبي عاصم، والطبراني من حديث معاوية وإسناده حسن، لأن فيه مبهماً، اعتضد بمجيئه من وجه آخر، وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبو نعيم الأصبهاني مرفوعاً. وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره، فلا يغتر بقول من جعله من كلام البخاري ا هـ.

ولا يجوز للمسلم أن يعيش مقطوع الصلة بالعلم، فمن لم يكن عالماً، فليكن متعلماً، ومن لم يكن متعلماً فليكن مستمعا. وإلا فليكن محباً لهؤلاء. وذلك أضعف الإيمان.

عن أبي بكرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك» قال عطاء: قال لي مسعر: «زدتنا خامسة لم تكن عندنا. والخامسة أن تبغض العلم وأهله»[1].

ما يجب على كل مسلم تعلمه:

حث الرسول ﷺ على التعلم أعظم الحث، ورغب فيه كل الترغيب، حتى جعله فريضة لازمة، وذلك في الحديث الذي اشتهر على الألسنة، حتى حفظه الكبير والصغير والخاص والعام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2]

أي: على كل إنسان مسلم ذكرا كان أم أنثى. ولهذا يرويه جمهور الناس.. على كل مسلم ومسلمة. والمعنى صحيح، ولكن اللفظ لم يرد.

ولكن. ما العلم الذي جعل الحديث طلبه فرضاً على كل مسلم؟

قد تباينت الأقوال وتناقضت الآراء، في هذا العلم المفروض على نحو عشرين قولاً، كما يقول العلامة المناوي ـ فكل طائفة تقيم الأدلة على فرضية علمها هي، وكل لكل معارض، وبعض لبعض مناقض.

فمن متكلم يحمل العلم هنا على علم الكلام، ويحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة لأنه علم التوحيد، الذي هو أساس البناء.

ومن فقيه يحمله على علم الفقه، إذ هو علم الحلال والحرام، وبه يعرف

---

(١) رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة والبزار ورجاله موثقون كما في مجمع الزوائد جـ١/١٣٢

(٢) رواه ابن ماجه، وابن عبد البر في العلم، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود، وفي الاوسط عن ابن عباس، وأبي سعيد وغيرهم وفي طرقه كلها مقال. لذا ضعفه ابن القطان وابن عبد البر والنووي، وغيرهم لكن قال الأخيران: معناه صحيح. لكن قال الزركشي في اللآلىء: روى من طرق تبلغ درجة الحسن، وكذا قال الحافظ المزي وقال السيوطي: جمعت له خمسين طريقاً، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثاً لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس. انظر الجامع الصغير أحاديث ٥٢٦٤، ٥٢٦٧ وتعليق المناوي عليها في فيض القدير جـ٤ ص ٢٦٧/٢٦٨

المسلم كيف يعبد الله، وكيف يعامل الناس، ويقول: إن ذلك هو المتبادر من إطلاق العلم في عرف الشرع.

ومن مفسر يرى أن أولى ما يطلق عليه العلم هو العلم بالمراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وهذا هو علم التفسير.

ومن محدث يحمل العلم على معرفة السنن والآثار، التي بها بيان القرآن، وفيها تفصيل ما أجمل، وتبيين ما أبهم، وتخصيص ما عمم، وتقييد ما أطلق، وهي مع القرآن ـ حبل النجاة.

ومن نحوي يحمله على علم العربية، إذ الشريعة إنما تتلقى من الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) [إبراهيم: ٤]. فلا بد من إتقان العربية ليعرف البيان المشار إليه في الآية الكريمة.

ومن متصوف يحمله على علم العبد بحاله، ومقامه من الله عز وجل، أو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها.. الخ.

وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام «بُني الإسلام على خمس.. الخ» لأن الواجب هذه الخمس. فيجب العلم بكيفية العمل فيها، ويكفيه الوجوب[1].

وهكذا تعددت الآراء، واختلفت الأقوال، ولكل وجهة هو موليها والذي أراه أن العلم الواجب طلبه وتعلمه، عيناً ـ على المسلم هو ما لا بد له منه في دينه أو في دنياه.

أما في دينه، فلا بد له أن يتعلم من علوم الشرع:

١ ـ ما يعرف به عقيدته معرفة يقينية صحيحة، سالمة من الشركيات والخرافات.

٢ ـ وما يصحح به عبادته لربه ظاهراً، بأن تكون على الصورة المشروعة،

---

(١) انظر: الإحياء جـ١/١٤ وما بعدها وفيض القدير جـ٤/٢٦٧، ٢٦٨.

وباطناً بأن تتوافر فيها النية الخالصة لله تعالى.

٣ ـ وما يزكي به نفسه، ويطهر به قلبه، بأن يعرف الفضائل «المنجيات» ليتحراها ويتخلق بها، ويعرف الرذائل «المهلكات» ليتجنبها ويتوقاها.

٤ ـ وما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه، أو مع أسرته، أو مع الناس، حكاماً ومحكومين مسلمين وغير مسلمين، فيعرف في ذلك الحلال من الحرام، والواجب من غير الواجب واللائق من غير اللائق.

ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر اللازم تحت اسم «التوحيد» أو «الفقه» أو «التصوف» أو «الآداب الشرعية» أو الزهد أو غير ذلك.

فهذه التسميات مصطلحات محدثة، ولم يتعبدنا الله بها، وإنما يهمنا المضمون، ولا عبرة بالأسماء والعناوين، متى وضحت المسميات والمضامين.

وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزامياً، يتعلمه كل مسلم ومسلمة: بالقراءة في المدارس والمعاهد،وبالسماع في المساجد، وفي أجهزة الإعلام المختلفة

وعلى كل دولة تنتسب إلى الإسلام، أن توفر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة، وأن تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها ما يجب عليهم، مثل فرصة التجنيد في الجيش أو في الشرطة.

ويجب على الآباء والأولياء أن يعلموا أولادهم، ومن يلون عليهم، أو يبعثوا بهم إلى المدارس والمساجد والأماكن يتلقون فيها العلم الواجب، ولا يجوز لولي أن يدع موليه في ظلام الجهل بدينه، دون أن يعلمه أو يهيء له من يعلمه، فضلاً عن أن يمنعه من التعلم إذا أراد.

وذلك أن الحديث الشريف يقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر»[1] فدل هذا على وجوب تعلم الصلاة ـ ومثلها الصيام لمن يطيقه ـ منذ تمام السابعة من العمر: لأن أداء الصلاة غير ممكن إلا بتعلمها

(١) رواه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وحسنه النووي في «الرياض» وصححه شاكر في تخريج المسند برقم (٦٦٨٩) كما أخرجه الحاكم في المستدرك ١٩٧/١

بشروطها وأركانها وكيفيتها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا قصر الأب أو الولي في تعليم من ولاه الله رعايته، ولم يعفه ذلك من وجوب التعلم وطلب العلم المفروض عليه، حين يبلغ الحلم، ويتحمل مسؤولية نفسه، فقد رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ.

يقول الإمام أبو محمد بن حزم بعد أن بين ما يلزم كل مسلم ومسلمة تعلمه من الطهارة والصلاة والصيام، وما يحل له ويحرم عليه من المآكل، والمشارب، والملابس، والفروج، والدماء، والأقوال والأعمال:

«فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس، ذكورهم وإناثهم، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم. وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم، وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم..

قال: ويجبر الإمام (رئيس الدولة) أزواج النساء، وسادات الأرقاء، على تعليمهم ما ذكرنا، إما بأنفسهم، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواماً بتعليم الجهال»[1].

وهذا القدر يجب أن يتعلمه المسلم بلغته التي يحسنها، ولكن يجب عليه أن يتعلم من العربية ما يتلو به أم القرآن في صلاته وما يقرأ به من الآيات، وما تقوم به الصلاة من التكبيرات والتسبيحات والسلام، وما يفهم به الأذان والإقامة ونحوها. ومن لم يجد هذاالقدر اللازم تعلمه موفوراً في بلده وجب عليه أن يرحل في طلبه حتى يتعلمه من أهله ولو بالصين.

على أن هذا القدر الواجب تعلمه إنما يمثل الحد الأدنى لمعرفة المسلم بدينه في كل بيئة وكل حال، ثم هو يتسع ويزداد حسب الأحوال والموجبات الخاصة أو العامة، فالفقير لا يجب عليه أن يتعلم تفاصيل أحكام الزكاة، إلا أن يتعلم ما يباح له أخذه من مالها، إنما يجب عليه أن يتعلم أحكامها إذا ملك مالاً تجب فيه الزكاة.

---

(١) انظر: الاحكام في أصول الأحكام لابن حزم ـ الباب الحادي والثلاثون: في صفة التفقه في الدين، وما يلزم كل امرىء طلبه من دينه ص ٦٩ طـ. مطبعة الإمام بالقاهرة.

ولا يفترض عليه تعلم كل الأحكام لكل أموال الزكاة، بل ما ملك نصاباً منه تعلم ما يتعلق به. فالتاجر يتعلم أحكام زكاة التجارة والنقود والديون ونحو ذلك: فيم تجب؟ ومتى تجب؟ وكم تجب؟ ولمن تجب؟ وليس عليه أن يتعلم زكاة الأنعام من إبل وبقر وغنم، وما يجب فيه بنت مخاض أو بنت لبون، إذ لا حاجة له فيها.

ومن لا مال له، ولا استطاعة عنده، لا يفرض عليه تعلم أحكام الحج، بل يتعلمه من ملك الصحة الجسمية، والقدرة المالية، أي: على نفقات السفر ذهاباً وإياباً، ونفقات الإقامة في الأرض المقدسة، ونفقات من يعوله حتى يعود، فعندئذ يلزمه تعلم أساسيات الحج والعمرة، وخاصة عندما يعقد النية، ويدخل في أشهر الحج. وإذا كان في المذاهب الفقهية من يرى أن فرض الحج على التراخي، فالأكثرون يرونه واجباً على الفور، والحزم في المبادرة والمسارعة إلى الخيرات.

وهكذا من كان له اختصاص بشيء، وجب عليه أن يتعلم ما يتصل به من الأحكام، فالتاجر يلزمه معرفة ما يحل وما يحرم من البيوع، وأنواع المعاملات والمداينات التي تدخل في نطاق التجارة، حتى لا يسقط في هوة الحرام وهو لا يدري. وجهله ليس عذراً له.

والطبيب يلزمه معرفة ما يتعلق بمهمته، كتحريم التداوي بالخمر، وتحريم الإجهاض ونحو ذلك. والذي تقتضيه مهنته السفر كربان السفينة والطيار ومضيف الطائرة يلزمه تعلم أحكام السفر ورخصه.

المهم أن كل من يحتاج إلى شيء، لاختصاصه به أو ملابسته له، يلزمه تعلمه ومالا فلا. على أن كل إنسان لا يخلو من وقائع في عبادته أو معاملاته، تتجدد له، ولا يعرف حكم الشرع فيها، فهنا يلزمه السؤال عنها، بل ينبغي له المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً[1]، قال تعالى: (فاسألوا أهلَ الذكر إن كُنتم لا تعلمون) [النحل: ٤٣].

(١) انظر: الإحياء، للغزالي، والأحكام لابن حزم السابق ذكرها.

ففرض على كل أحد طلب ما يلزمه.

هذا ما لا بد منه للمسلم في دينه، وتعلمه فرض عين عليه، وأما ما لا بد له منه في دنياه، فيختلف باختلاف البيئات والأزمان. وأرى أن تعلّم القراءة والكتابة والحساب وسائر ما يدرس في المرحلة الابتدائية الآن ـ على الأقل ـ لازم لكل إنسان مسلم في دنيا عصرنا حتى يكون عضواً نافعاً في المجتمع، ولا توصم أمتنا بالتخلف والأمية في مواجهة الأمم الراقية المتعلمة.

ما يفترض تعلمه على سبيل الكفاية:ـ

وهناك من العلوم ما يعد طلبه فرض كفاية على الجماعة، بحيث إذا قام به واحد أو عدد كاف سقط الحرج عن باقي الجماعة، وإلا أثمت الجماعة عامة، وأولو الأمر فيها خاصة.

يقول الإمام ابن حزم: ثم فرض على كل جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة أو دسكرة أو حلة أعراب أو حصن، أن ينتدب منهم ـ لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها ولتعلم القرآن كله، ولكتاب كل ما صح عن النبي ﷺ، من أحاديث الأحكام أولها عن آخرها وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه ـ من يقوم بتعليمهم، وتفقيههم من القرآن، والحديث، والإجماع ويكتفي بذلك على قدر قلتهم أو كثرتهم».

يعني أن الواجب طلب جميع ما ذكره ابن حزم، إن لم يستوعبه جهد الطالب.

واستدل ابن حزم لما ذكرة بقوله تعالى: (فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذرُوا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [التوبة ١٢٢] فالنفار المذكور فرض على الجماعة كلها، حتى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين. ثم قال: وفرض على جميع المسلمين أن يكون في كل قرية أو مدينة أو حصن من يحفظ القرآن كله، ويعلمه الناس ويقرئه إياهم، لأمر رسول الله ﷺ بقراءته.[1]

---

(١) الاحكام لابن حزم ص ٦٩٠/٦٩١

والظاهر أن فرض الكفاية هنا: هو كل ما تحتاج إليه الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها، من التبحر في علوم الشرع أو التخصص في علوم الكون: من طب، وهندسة، ورياضة، وفلك، وكيمياء، وطبيعة، وإحياء، وجيولوجيا أو غيرها، من كل ما تتطلبه حياة الناس الاجتماعية في هذا العصر مدنياً أو عسكرياً.

بل كل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم، ليحقق لهم التفوق على غيرهم، وتكون لهم القوة على عدوهم، فهو فرض عليهم على الكفاية، والتفريط فيه يصيب الأمة كلها بالحرج والإثم. وقد يتعين فرض الكفاية في حق بعض الناس إذا دعاه إليه من له الأمر ولا عذر عنده أو كان عنده من الأهلية ما ليس عند غيره، وعلم ذلك من نفسه، ولم يحل دونه حائل.

والأصل في ذلك: أن كل ما يؤدي إلى ضعف الأمة، يجب دفعه قبل وقوعه، ورفعه إن وقع. وأن كل ما يؤدي إلى قوة الأمة واستقرارها، وحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية، يجب تحصيله عليها بالتضامن، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ويقول الإمام الغزالي في بيان العلم الذي هو فرض كفاية:

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة، فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضروري

في المعاملات، وقسمة الوصايا، والمواريث وغيرها. وهذه هي العلوم التي لـو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، (أي: أثموا)، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية كالفلاحة، والحياكة، والسياسة بل الحجامة والخياطة. فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك. فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله. وأما ما يعد فضيلة. لا فريضة، فالتعمق في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وغير ذلك مما يُستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه.

وأما المذموم: فعلم السحر، والطلسمات، وعلم الشعوذة والتلبيسات.

وأما المباح منه: فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، والتواريخ والأخبار وما يجري مجراه[1]. أ هـ.

وفي بعض ما ذكره الإمام أبو حامد هنا نظر، بالنسبة لعصرنا. فإن اتساع نطاق العلوم اليوم، وانقسام كل منها إلى فروع وكل فرع إلى تخصصات دقيقة، يخالف ما اعتبره الغزالي من باب التعمق المستغنى عنه في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وعده بذلك فضيلة لا فريضة.

فالواقع أن هذا التعمق اليوم أصبح لازماً لكل طب ناجح، أو محاسبة ناجحة، وقد تطور علم الطب، والعلوم التي تخدمه تطوراً كبيراً، وكذلك علم الرياضيات، وكذلك علوم الطبيعة التي ذكر الغزالي نفسه في مقام آخر أنه لا حاجة إليها!! بخلاف الطب فإنه محتاج إليه[2].

وربما كـان الإمـام الغـزالي رحمه الله معـذوراً فيما ذكـره مـن العلـوم والرياضيات في عصره، فقد كانت ممزوجة بالفلسفة، غير منفصلة عنها، وكان

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ـ جـ ١ ص/١٦.

(٢) الإحياء جـ١/٢٢.

للغزالي رأي في تلك الفلسفة وقضاياها، مسجلة في كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة»، وقل من يقرأ الجانب العلمي والرياضي من الفلسفة دون أن يتأثر بالجانب الالهي منها كما أشار إلى ذلك في «المنقذ من الضلال». والجانب الإلهي من تلك الفلسفة خليط من الوثنية اليونانية ومن شطحات العقل البشري فيما لا تعرف حقيقته إلا بالوحي المعصوم.

وكذلك ما ذكره عن العلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار، وما يجري مجراه، حيث عدها من قسم المباح فحسب، والذي يبدو لي أن معرفة الشعر والأدب العربي عامة، ومعرفة التاريخ الإسلامي على الخصوص، والإنساني على العموم، من الواجبات الكفائية فلا يجوز أن تخلو الجماعة المسلمة عمن يحسنها ويوجهها وجهة الحق، ويرد على من يستخدمها في سبيل الباطل، كما نرى ذلك بين أتباع اليمين واليسار.

وهي كذلك سلاح من الأسلحة الثقافية للداعية[1] المسلم.

بل أرى أن واجباً على الجماعة الإسلامية أن يكون فيها من يتخصص في جميع ألوان الدراسات الإنسانية المختلفة (علم النفس، والاجتماع، والتربية، والاقتصاد، والسياسة وغيرها)، حتى يدرسها ويعرضها من منطلق إسلامي أصيل، وفي إطار إسلامي مأمون، ولا سيما أن هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، هي التي تصنع فكر الأمة وذوقها، وتلون اتجاهها وسلوك أفرادها بلونها، فلا يجوز أن يعدها المسلمون مجرد مباح يجوز فعله وتركه، إنما يجب عد ذلك من فروض الكفاية.

ولو رأى صاحب «الإحياء» رحمه الله ما رأينا من خطر هذه العلوم، وتسلط حملتها على عقول الشباب، واستغلال اليهود لها في كثير من جامعات الغرب، ومراكز بحثه، لغير رأيه واجتهاده، وقضى بما قضينا، ولكل عصر ظروفه وأحكامه.

تصحيح النية:

وأول ما يرجى من طالب العلم، وبخاصة العلم الشرعي، تصحيح النية،

---

(١) انظر: كتابنا «ثقافة الداعية» فصول: الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية.

وذلك أن يجاهد نفسه على الإخلاص والتجرد، ويتحرى بعلمه وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولا يجعل همه ونيته مباهاة العلماء، أو مماراة السفهاء، أو مجاراة الأغنياء، أو مداهنة الأمراء، أو جمع المال، أو الجاه، أو غير ذلك مما يتطلع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى، فيبيعون باقياً بفان، وعظيما بحقير، وملكاً كبيراً بثمن قليل.

ولو جاز هذا في طلب علوم الدنيا، لم يجز في طلب علوم الآخرة، التي تحتاج أول ما تحتاج إلى تصفية السريرة، وتجريد الهمة، والإقبال بكلية القلب على الله تعالى.

ولقد جاء الحديث الصحيح يحمل الوعيد الشديد للثلاثة الذين أفسد الرياء أعمالهم، ونقلهم من ديوان المخلصين الصادقين، إلى ديوان المرائين الكاذبين فكانوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة.

ومن هؤلاء رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأُتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن! قال: كذبت، ولكنك تعلمت، ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار[1].

وعن جابر قال، قال رسول الله ﷺ «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار[2]».

وعن ابن مسعود أنه قال: «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سنة، فإن غيرت يوماً قيل: هذا منكر! قيل: ومتى

---

(١) رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة.

(٢) قال المنذري: رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، كلهم من رواية يحيى بن أيوب الغافقي عن ابن جريج عن أبي الزبير عنه، ويحيى هذا ثقة قد احتج به الشيخان وغيرهما، ولا يلتفت إلى من شذ فيه. ورواه ابن ماجه بنحوه من حديث حذيفة ـ ترغيب رقم ١٧٩. وقال العراقي في تخريج الإحياء: إسناد ابن ماجه صحيح. وقال البوصيري في زوائد ابن ماجة: رجال إسناده ثقات (الحديث ٢٥٤ من ابن ماجة) ورواه الحاكم، وصحح إسناده وسكت عليه الذهبي (١/٨٥-٨٦)

ذلك؟ قال: إذا قلت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكم ، وقلّت فقهاؤكم، وكثرت قراؤكم .. وتفقه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الاخرة»[1] .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً، مما يبْتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضا من الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة» أي: ريحها.[2]

وأي خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان الجنة حتى إنه لا يجد عَرفها وريحها، وريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا؟!.

ومن رحمة الله تعالى ـ كما أفهمَ الحديثُ ـ أن الوعيد فيه إنما هو فيمن ليس له أي قصد أخروي، لأنه جاء بهذا الحصر الحاسم «لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا» ومعنى هذا أن من قصد الآخرة بعلمه، وأراد معها شيئاً من الدنيا، فلا يتناوله الوعيد المذكور، شأنه شأن الحاج الذي يقصد إلى الحج، ويقصد بجواره شيئاً من التجارة، وقد تحرج من ذلك بعض الصحابة فنزل قوله تعالى: (ليس عليكُم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم) [البقرة: ١٩٨].

فمدار الحكم على المقصد الأساسي: ما هو؟ الآخرة أم الدنيا؟ على أنهم قالوا: فرق بين من يأخذ الدنيا ليتفرغ لعمل الآخرة، وبين من يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا. فتأمل فإنه موضع الزلل[3] .

والحديث إنما يذم من قصد بعلمه الدنيا، لا من جاءته الدنيا بغير هذا القصد. وإنما ذم القرآن من (طغى وآثر الحياة الدنيا) [النازعات: ٣٧، ٣٨] وذم أيضا من وصفه الله بقوله: (من تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا) [النجم: ٢٩] وكذلك (من كان يريد العاجلة) في مقابل (من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) [الإسراء: ١٨-١٩].

---

(١) رواه عبد الرزاق في كتابه موقوفاً ـ ترغيب ١٨٥.

(٢) قال المنذري (ترغيب: ١٧٧): رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم. وأقول: ووافقه الذهبي أيضاً (المستدرك جـ١/٨٥).

(٣) المرقاة/ شرح المشكاة جـ١ ص/٢٣٥.

فالدنيا ليست مذمومة لذاتها، كيف وقد كان كثير من العلماء الكبار أغنياء مثل الليث بن سعد، وأبي حنيفة وغيرهما؟ بل كان في كبار الصحابة أغنياء ذوو ثروات طائلة مثل عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وطلحة والزبير، من العشرة المبشرين بالجنة، بل كان في الأنبياء أغنياء مثل يوسف، وداود وسليمان الذين آتاهم الله النبوة والملك معاً.

والدنيا إنما ذمت هنا، لأنها أريدت بعمل الآخرة، وعلم الآخرة، ولهذا قيده في الحديث بقوله «علم مما يُبتغى به وجهُ الله تعالى» وهو علم الدين. وكيف تذم الدنيا في حد ذاتها وقد صح في الحديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»؟[1]

وكيف تذم الدنيا لذاتها وهي مزرعة الآخرة؟. ولهذا قال العلامة القاري في «المرقاة»: أفهم الحديث أن من أخلص قصده فتعلم لله، لا يضره حصول الدنيا له من غير قصدها بتعلمه. بل من شأن الإخلاص بالعلم، أن تأتي الدنيا لصاحبه راغمة، كما ورد «من كان همه الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وتأتيه الدنيا وهي راغمة»[2].

ومن المعروف أن معظم طلاب العلم في عصرنا، لا يتجهون إلى العلم بنية سابقة، ورغبة مبيته، بل يوجههم إليه - في صغرهم - آباؤهم وأولياء أمورهم، أو يوجههم إليه - رغماً عنهم - مجموع درجاتهم في بعض المواد أو كلها، أو توجههم ظروف خاصة بهم مثل ألا يكون في البلد إلا لون معين من الدراسة يفرض عليهم، رضوا أم سخطوا. ثم لا يلبثون إذا أدركوا ونضجوا أن يجدوا أنفسهم في معهد ديني، أو مدرسة شرعية، ولو خُير اليوم ما اختار هذا الطريق فهذه دراسة بلا نية، لأنّ صاحبها أُجبر عليها، ولم يكن له حق الاختيار، وإنما النية مع الاختيار.

وينبغي لمن وضعته الأقدار في هذا الموضع من تعلم الدين ودراسة علوم

---

(١) رواه أحمد بسند جيد كما قال العراقي في «تخريج الأحياء».

(٢) المرقاة شرح المشكاة ص٢٣٦ وهو في سنن ابن ماجه رقم (٤١٠٥) بنحوه، وقال في «الزوائد»: اسناده صحيح، رجاله ثقات.

الشريعة، أن يحاول من جديد إنشاء نية صالحة، ورغبة صادقة، وسيجد من العلم الذي يعيش في ظلاله ـ علم القرآن والسنة ـ وصحبة أهل الخير في سيرهم، ما يعينه على تصحيح النية، وتجريد الإرادة لله جل شأنه.

وقد رووا عن مجاهد قال: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية[١].

وعن الحسن قال: لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده، قال: فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده.[٢].

وعن الثوري قال: طلبنا العلم للدنيا، فجرنا إلى الآخرة[٣].

وعن معمر قال: إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله[٤]. وعلق الغزالي على هذا الأثر وأمثاله بأن هذا لا ينطبق على علم الخلافيات في الفقه، أو الجدل في الكلام، بل على التفسير والحديث. لما لهما من صلة بالله واليوم الآخر، ولما لكلام الله وكلام رسوله من أثر. يمكن أن ينتهي بصاحبه إلى الإخلاص ورجاء الآخرة، وما عند الله عز وجل[٥].

استمرار التعلم:

والعلم بحر لا قرار له، ولا شطآن له، وكلما تعمق طالبه فيه، تفتحت له فيه أبواب جديدة، وتبينت له معالم كانت خافية، وتحتاج إلى مزيد بحث ومزيد تحقيق.

من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد الزيادة منه على الدوام، وأن يستمر في طلبه ما عاش، فالعلم يحتاج دوماً إلى تجديد ونماء.

وليس بعد أمر الله لرسوله بيان: (وقل رب زدني علماً) [طه: آية ١١٤].

وقد قص علينا القرآن، وقص علينا الرسول عليه الصلاة والسلام، قصة

---

(١)، (٢): سنن الدرامي جـ ١ ص/٨٥.
(٣)، (٤): «جامع بيان العلم» جـ ٢٨/٢.
(٥) الإحياء.

موسى عليه السلام في طلبه علم ما لم يعلم، عند عبد الله الخضر عليهما السلام، ولذا قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا!؟[1]) [الكهف: آية ٦٦].

ولا غرو أن شاع بين المسلمين هذه الحكمة «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» وحكمة أخرى تقول: «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل»[2].

وقال ابن عباس: منهومان لا تنقضي نهمتهما: طالب علم، وطالب دنيا.

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى المهات إن شاء الله.

وسئل أبو عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دامت تحسن به الحياة!

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح!

وقيل للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ فقال: إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به.

وقال مالك بن أنس: لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم[3].

هذا هو مسلك المسلم: حرص على زيادة المعرفة، واستمرار في طلب العلم، لا يشبع منه، ولا يرغب عنه، ولا يحول دون طلبه كبر سن، ولا عظم قدر، حتى المهات.

وكان سلف الأمة حريصين على ألا يمر يوم دون أن يكتبوا فبه شيئاً من العلم، كثر أو قل وإلا عدوا هذا اليوم ضياعاً وغبناً.

وفي هذا روي الأثر: «إذا أتى عليَّ يوم لم أزدد فيه علماً يقربني من الله

---

(١) «جامع بيان العلم» جـ ١٢٠/١

(٢) هذه من كلام سفيان بن عيينه وليست حديثاً كما ظنها بعض الناس.

(٣) هده الآثار في «جامع بيان العلم» ج١/١١٤، ١١٥.

عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

قال ابن القيم: وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ، ورفعه إليه باطل، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين.

وفي مثله قال القائل:

إذا مر بي يوم ولم أستفد هـدى ولم أكتسب علما فما هو من عمري!

وخطب علي رضي الله عنه، خطبة قال فيها: واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل أمرىء ما يحسن، فتكلموا في العلم تتبين أقداركم.

قال الإمام ابن عبد البرّ: ويقال: إن قول علي: «قيمة كل امرىء ما يحسنه» لم يسبقه إليه أحد.

وقالوا: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها: قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئاً.[1]

الصبر على متاعب الطلب:

ومن أدب المتعلم في الإسلام: أن يوطن نفسه على احتمال المتاعب، ومواصلة عناء النهار بسهر الليل، والصبر على مشاق الارتحال في طلب العلم.

ولا يخفى على طالب علم ما ذكره القرآن العظيم، وما نوه به الرسول الكريم من أمر موسى كليم الله، ومصطفاه عليه السلام، وارتحاله في طلب العلم عند عبد الله المعروف بـ «الخضر عليه السلام» (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلُغَ مجمع البحرين أو أمضيَ حقبا). [الكهف آية: ٦٠]، وقطع هو وفتاه ما قطعا من مفاوز، ومسافات لا يعلم طولها إلا الله تعالى، كان من أثرها ما عبر عنه موسى بقوله لفتاه: (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرِنا هذا نصبا)[2]. وكان ما كان من عودتها مرة أخرى قافلين إلى الموضع المنشود للقاء.

---

(١) «جامع بيان العلم» جـ١/١١٩.

(٢) القصة في سورة الكهف، وفي صحيح البخاري «كتاب العلم» وغيره.

وقال ابن عباس: طلبت العلم، فلم أجده أكثر منه في الأنصار، فكنت آتي الرجل فأسأل عنه: فيقال لي: نائم، فأتوسد ردائي ثم أضطجع حتى يخرج إلى الظهر، فيقول: متى كنت ههنا يا ابن عم رسول الله، فيقول: منذ زمن طويل فيقول: بئسما صنعت، هلا أعلمتني؟ فأقول: أردت أن تخرج إليّ وقد قضيت حاجتك» .[1]

وكان ابن عباس يقول: ذللت طالباً، فعززت مطلوباً.

وذكر ابن عبد البر وغيره: أن أبا أيوب الأنصاري رحل من المدينة إلى مصر ليسمع من عقبة بن عامر حديثاً سمعه من النبي ﷺ في ستر المسلم على المسلم، فلما سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة، وما حل رحله[2].

ونحو هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصاري. فقد رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد[3].

وقال سعيد بن المسيب: إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد. وحدث الشعبي رجلاً بحديث ثم قال له: خذها بغير شيء، وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة، (وكان الشعبي بالكوفة بالعراق).

وقال الشعبي: لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره قد ضاع[4].

ورحلات المسلمين وبخاصة علماء الحديث في طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيراً. ومن طالع رحلات الأئمة مثل الشافعي، وابن حنبل، والبخاري، ومسلم وغيرهم، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول في طلب العلم.

---

(١) سنن الدارمي جـ١ ص/١١٤

(٢) رواه ابن عبد البر في «كتاب العلم».

(٣) ذكره البخاري معلقاً مجروماً به في صحيحه باب الخروج في طلب العلم. وذكر في الفتح (١/١٨٣) له طرقاً بعضها عند أحمد، وأبي يعلى والطبراني في مسند الشاميين ولا تخلو من مقال. وعند تمام في فوائده من طريق إسنادها صالح.

(٤) «جامع بيان العلم» وباب الرحلة في طلب العلم.

لقد بذلوا في طلبه النوم بالليل والراحة بالنهار، وتحملوا الشظف والفقر في سبيله غير ضجرين ولا متبرمين. فقد تلقوا عن شيوخهم هذه الحكمة: لا ينال العلم براحة الجسم. وكان الإمام مالك يقول: إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم، حتى باع خشب سقف بيته، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر!

وقال شعبة لأصحابه: ليبلغ الشاهد منكم الغائب: من ألح في طلب العلم - أو قال في طلب الحديث - أورثه الفقر.

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع[1].

وليس المهم في طلب العلم محض تعب البدن، بل أهم منه تفريغ القلب له بالتقليل من شواغل الدنيا المادية، وصوارف الحياة الاجتماعية، فإن العلائق شاغلة وصارفة. وقد قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) [الأحزاب: آية ٤].

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق. ولذلك قالوا: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر.

قال الغزالي: والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه، فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع.

فهذه نظرتهم للعلم، وهذه كانت حياتهم في طلبه. وكانوا قريري العين بها، فإن لذة معرفة الحقيقة تُنسي مشقة الحصول عليها. وقد قيل لأحد العلماء: فيم لذتك؟ فأجاب: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً!

(١) ذكر هذه الآثار ابن عبد البر في: «جامع بيان العلم» باب الحض على استدامة الطلب والصبر على الأذى والنصب.

ومن الصبر المحمود، والمطلوب لطالب العلم: أن يصبر على أستاذه، ويحتمل شدته إن كان شديداً، وغضبه إن كان غضوباً، ويحترم صمته فيما لا يحب الكلام فيه. وخير مثل لذلك هو صبر موسى على الخضر عليهما السلام، قال له موسى: (هل أتَّبعُك على أن تُعلمن مما عُلِّمت رُشْداً؟ قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تَصبِر على ما لم تُحط به خُبْرا؟ قال ستجدُني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِث لك منه ذكرا) [سورة الكهف: آية ٦٦ - ٧٠].

فهذا صبر أشد من الصبر على نصب الأسفار، ومتاعب الفقر والارتحال، ولهذا صبر موسى على النصب في سفره الطويل، ولم يطل صبره على هذا الأخير، وقال له الخضر: (هذا فِرَاقُ بيني وبينك، سأُنَبِّئُكَ بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً).

توقير المعلم وإكرامه:

ومن أدب المتعلم الذي جاءت به السنة النبوية: توقير المعلم، وإعطاؤه ما يستحق من التكريم والإكبار. فإن المعلم لتلميذه بمنزلة الأب لولده. بل قال يحيى بن معاذ رحمه الله: العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة.

وبهذا صار حق المعلم - كما يقول الغزالي - أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر، والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية. ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم. وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية. أعني معلم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة.[1]

وفي المفاضلة بين المعلم والأب يقول الشاعر:

---

(١) الإحياء جـ١/٥٥.

فهذا مربي الروح والروحُ جوهرٌ   وذاك مربي الجسم والجسم كالصدف!

وقال الحسن: لولا العلماء، - أي: المعلمون - لصار الناس مثل البهائم! أي: أنهم بالتعليم يخرجونهم من حضيض البهيمية إلى أفق الإنسانية

ومن أجل هذا جاءت الأحاديث بتوقير العلماء، وإكرامهم حتى بعد موتهم. وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ، كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد (يعني في القبر) ثم يقول: أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد[1]. وفي هذا التقديم رمز لتكريمه لفضل ما معه من قرآن أكثر.

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ، قال: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[2].

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ، قال: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا»[3]، أي: يعرف له حقه.

وحسبنا أن نذكر ونذكّر هنا بقصة نبي الله وكليمه موسى بن عمران الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، وآتاه التوراة فيها موعظة وتفصيل لكل شيء في زمنه. فلما أعلمه الله بما عند الخضر من علم ليس عنده، رحل موسى إليه كما أشرنا إلى ذلك من قبل واستعذب العذاب في سبيل ملاقاته والاستفادة منه، فلما وجده، قال له موسى في أدب التلميذ وتواضع المتعلم: (هل أتّبعُك على أن تُعلمن مما عُلمت رُشدا؟). بهذه الصيغة الحاسمة «هل أتبعك» فهو اتباع وليس رفقة أو مصاحبة، وهو يستأذنه في هذا، لأن المعلم المتطوع هو صاحب الحق في انتقاء طلبته: يقبل من يشاء، ويرفض من يريد، ولا معقب عليه. هذا على الرغم من فضل موسى عليه ببقين. فهو قد

(١) رواه البخاري - ترغيب ١٦٤

(٢) رواه ابو داود ترغيب ١٦٥. والمقسط: العادل

(٣) رواه أحمد بإسناد حسن، والطبراني، الحاكم إلا أنه قال: ليس منا

اختلف في نبوته. على حين موسى من أولي العزم من الرسل، ويكفي قوله تعالى: (يا موسى إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي) [الأعراف: آية ١١٤].

وقال ابن عباس: والله إن كنت لآتي الرجل منهم، (أي: الأنصار) فيقال: هو نائم فلو شئت أن يوقظ لي، فأدعه حتى يخرج، لأستطيب بذلك حديثه.[١]

وعن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس، فأخذ بركابه توقيراً وتعظيماً لعلمه وفضله، فقال له زيد: خل عنك يا ابن عم رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء.[٢]

وعن الزهري قال: كنت آتي باب عروة فأجلس بالباب، ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالاً له[٣].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن من حق العالم: ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب، وألا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، (أي: تريد أن تستوقفه)، ولا تفشين له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله، ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، (أي: تدير له ظهرك)، وان كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.[٤]

ومن توقير المتعلم لمعلمه: أن يحسن الصمت في موضعه، كما يحسن الكلام أو السؤال في موضعه.

قال الحسن بن علي لابنه: يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الصمت،

---

(١) الدارمي جـ ١/١١٥

(٢) «جامع بيان العلم» ج١/١٥٥ وقال العراقي في تخريج الإحياء أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل، وقال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم

(٣) الدارمي جـ١/١١٥

(٤) «جامع بيان العلم» جـ١/١٥٦، ١٥٧.

ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك.

وقال شعبة: كل من سمعت منه حديثاً، فأنا له عبد!

وهذه الكلمة قد شاع معناها عند المسلمين حتى جرت مجرى المثل، وهي قولهم: «من علمني حرفاً صرت له عبداً»! وهذه غاية في التكريم للعلماء والمعلمين، لم ترق إليها أمة من الأمم.

ولم يشع بيت من الشعر في عصرنا كما شاع بيت شوقي في مطلع قصيدته الشهيرة في تكريم المعلم:

قُم للمعلم وَفِّهِ التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا!!

أرأيت أعظم أو أجل من الذي ... يبني وينشىء أنفساً وعقولا؟!

حسن السؤال:

وليس من توقير العالم أو المعلم ترك سؤاله فيما يُشكل عليه حياء منه، فإن هذا ليس من الحياء الشرعي المحمود، الذي هو من الإيمان، ولا يأتي إلا بخير. وإنما هو ضعف ومهانة. ولهذا قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.[2]

وروى البخاري عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ (تعني إذا رأت في منامها أن رجلها يجامعها). فقال النبي ﷺ: إذا رأت الماء.

وهنا نجد أم سلمة تغطي وجهها حياءً، وعائشة تقول لها ـ كما في صحيح مسلم ـ: فضحت النساء!![3].

---

(١) رواه البخاري معلقاً في صحيحه ـ كتاب العلم ـ باب الحياء في العلم ـ ووصله أبو نعيم في «الحلية»، بإسناد صحيح، كما في الفتح جـ١/٢٣٩.

(٢) رواه البخاري معلقاً أيضاً، ووصله مسلم كما في (الفتح نفسه).

(٣) الفتح نفسه.

ومن غلبه الحياء في أمر ما، فليدع غيره ليسأل له عما يريد، كما فعل علي ابن أبي طالب، حين استحيا أن يسأل النبي ﷺ عن المذي، لمكان رسول الله ﷺ، من ابنته التي هي زوجته، فأمر المقداد وعماراً، فسألا له رسول الله ﷺ عن ذلك(1).

ويقول الإمام ابن شهاب الزهري: العلم خزائن ومفاتيحها السؤال. يعني: أن الذي يستخرج ما في صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم. وفي هذا فائدة للعالم نفسه، ليظهر المخبوء من علمه ويحيا وينتشر، وفائدة للمتعلم، ليعرف ما يجهل، ويؤكد ما يعلم، ويستوثق مما يستريب فيه.

وهذا شأن الطالب النابه، لا يقرأ أو يسمع إلا ليعي ويفهم، وإلا سأل وراجع. وروى البخاري عن ابن أبي مليكة: أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه(2).

وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لهم لم يستبن لهم المراد منها، حتى أجيبوا عنها، كسؤالهم عن آية: (الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم) [الأنعام: آية ٨٢] قائلين: وأينا لم يظلم نفسه؟ فأجيبوا: أن المراد بالظلم في الآية الشرك. كقوله تعالى على لسان لقمان: (إن الشرك لظلم عظيم).

وأمثال ذلك كثير، ومن لم يسأل أضاع على نفسه علماً كثيراً. يقول الشاعر:

إذا كنت لا تدري ولم تك بالذي يسائل من يدري، فكيف إذن تدري؟!

وقال عمر: من علم فليعلّم، ومن لم يَعْلَم فليسأل العلماء.

---

(١) رواه البخاري في «باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال». الفتح ٢٤

(٢) الفتح/٢١٧

التعليم ومبادئه وقيمه

بعد أن بينت السنة النبوية فضل التعلم وآدابه وحدوده، بينت فضل التعليم ومنزلته وما يجب له من شروط، وما ينبغي له من آداب، وغالت بالمعلم ورفعته مكاناً علياً.

يقول (ﷺ): «خيركم من تعلم القرآن وعلمه[1]».

كما غالت بالقيم التعليمية أو التربوية الأصيلة التي يحسبها الناس من ثمار هذا العصر، أو من السلع المستوردة من أوروبا وأمريكا، شأن بقية السلع المادية الأخرى.

وسنتحدث في هذا الفصل عن أهم هذه القيم أو المبادىء التي فصلتها السنة، وعُني بها الصحابة وسلف الأمة، عسى أن تعود للأجيال الجديدة الثقة بدينها وتراثها، ويعرفوا من حياتهم وفكرهم ما هو أصيل وما هو دخيل، وعسى أن يسيروا على ما سار عليه أوائلهم من النهوض بالعلم، وإعلاء صرح التربية على تقوى من الله ورضوان.

نبني كما كانت أوائلنا تبني، ونفعل مثلما فعلوا

١ ـ العناية بالمعلم والتنويه بقدره:

وأولى هذه القيم الأصيلة: العناية بشأن المعلم، والإشادة بمنزلته والتنويه بمكانته، فهو يقوم مقام رسول الله ـ ﷺ ـ في هداية الخلق إلى الحق وتعليمهم ما ينفعهم في أولاهم وأخراهم. وقد تحدثنا عن وجوب توقير المعلم وإكرامه في فصل «أدب التعلم».

---

(١) رواه البخاري.

إن المعلم هو العنصر الفعال في عملية التعليم، فعلى قدر ما يحمل في رأسه من علم وفكر، وما يحمل في قلبه من إيمان برسالته، ومحبة لتلاميذه، وما أوتي من موهبة وخبرة في حسن طريقة التعليم، يكون نجاحه وأثره في أبنائه وطلابه.

وكثيراً ما كان المعلم الصالح عوضاً عن ضعف المنهج وضعف الكتاب، وكثيراً ما كان هو المنهج والكتاب معاً.

ومن هنا كانت عناية النبي - ﷺ - بالمعلم، وتنويهه برسالته، وما لها من شأن عند الله، وعند المخلوقات كلها. فهو مشغول بمهمته، وهي مشغولة بالاستغفار له.

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، وأهل السماوات والارض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلمي الناس الخير[1]».

وأي فضل أعظم من أن تشتغل هذه المخلوقات المبرأة من الذنوب - في السماء والأرض - بالصلاة والدعاء لمن يعلم الناس الخير.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها[2]».

والحسد هنا معناه: الغبطة. وكيف لا يغبط الغني الشاكر، والعالم المعلم؟ بل جاء في الحديث أن الصدقة بتعليم العلم أفضل من الصدقة بإيتاء المال. فعن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه المسلم[3]».

وروي عنه - ﷺ - حديث آخر يقول: «ما من رجل مسلم تعلم كلمة أو كلمتين او ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً مما فرض الله عز وجل، فيتعلمهن

---

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم برقم ٢٦٨٦ من حديث أبي أمامه وقال: حدىث حسن.

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود كما في الترغيب ١٢١.

(٣) رواه ابن ماجة بإسناد حسن من طريق الحسن عن أبي هريرة - الترغيب ١٢٠.

ويعلمهن إلا دخل الجنة[١] » .

وقال أبو هريرة: فما نسيت حديثاً بعد إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ .

ويكفي المعلم فضلاً أن له أجراً بمقدار من ينتفع بعلمه، ويهتدي به من الناس، قربوا أو بعدوا، قلوا أو كثروا .

يقول ﷺ : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله[٢] » .

ويقول: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً[٣] » .

وإذا كان ـ ﷺ ـ يقول: « لأن يَهدي الله بك رجْلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم[٤] » فكيف بمن هدى الله به أفراداً وجماعات يؤجر كلما أجروا ؟

وروى أبو موسى عنه ﷺ قال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به[٥] » .

والحديث يشبه علم النبوة بالغيث، بجامع الإحياء في كل منهما . فالغيث يحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي العقول والقلوب بعد جهلها .

وشأن الناس مع العلم والهدى كشأن الأرض مع الغيث والمطر .

---

(١) رواه أبو نعيم وإسناده حسن، لو صح سماع الحسن من أبي هريرة . ترغيب

(٢) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي ـ من حديث أبي مسعود البدري . ترغيب ١٩٤

(٣) رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة

(٤) رواه البخاري ومسلم من حديث علي

(٥) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى

فهناك أرض طيبة تشرب الماء فتحيا به، وتنبت الكلأ والعشب الكثير، ويشبهها من حملة العلم من جمعوا بين الرواية والدراية من العلماء الدعاة المعلمين، فهم ينتفعون وينفعون.

وهناك أرض تحفظ الماء، كأنما هي أحواض مبنية لمنع الماء أن يتسرب ويذهب سدى، فهي تمسكه ليشرب منه من يشرب، أو يسقي ويزرع. ويشبهها من أهل العلم الرواة الحفظة النقلة، الذين يحملون العلم لغيرهم، وإن لم يكن لهم فيه كبير فهم أو استنباط.

وأرض ثالثة سبخة رديئة، لا تنتفع بالماء لنفسها، ولا تمسكه لغيرها. ويشبهها أولئك الذين أعرضوا عن العلم والهدى، فلا ينتفعون ولا ينفعون، ولا يحفظون ولا يفهمون، فلا هم في أهل الرواية ولا في أهل الدراية[1].

فالعالم العامل المعلم هو وارث النبوة حقاً - وقد روي عن المسيح عليه السلام قوله: «من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات».

وكان السلف إنما يسمون الرجل «ربانياً» إذا علم وعمل بعلمه، وعلم غيره إشارة إلى قول الله تعالى: (ولكن كُونوا ربَّانيين بما كُنتم تُعلِّمون الكتابَ وبما كنتم تَدرُسُون) [آل عمران ٧٩].

وناهي المعلم شرفاً وفضلاً أن رسول الله وخيرته من خلقه سمى نفسه «معلماً» فعن ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - مر بمجلسين في مسجده: «أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، قال: كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله، ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل. فهؤلاء أفضل. وإنما بُعثت معلماً، ثم جلس فيهم[2]».

---

(١) لابن القيم كلام جيد في هذا الحديث في كتابه «مفتاح السعادة» جـ١/٦٠ فليراجع.

(٢) أخرجه الدارمي ج١/٧٤ بتحقيق السيد عبد الله هاشم يماني، وأبو داود الطيالسي ١/٣٦، والبغوي ١/٢٧٤ - ٢٧٥، وفي إسناده عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف.

وقد ضعف سند هذا الحديث، ولكن يشهد له الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: « إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً[1] ».

بل يشهد له القرآن ذاته، فقد وصف الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في أربع آيات[2] بأن من وظيفته الأساسية أن يعلم أمته الكتاب والحكمة.

٢ ـ تكافل المجتمع في تعليم أبنائه:

وينبغي لمن علم علماً أن يبدأ بتعليمه لأقرب الناس إليه ثم من يليهم، ثم من بعدهم وهكذا، كما يبدأ في النفقة: ابدأ بمن تعول[3].

وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) [التحريم: ٦] قال: علموا أهليكم الخير[4].

وقال تعالى: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) [طه: ١٣٢].

وفي الحديث: « ما نحل والد ولده نحلاً أفضل من أدب حسن[5] ».

ويأتي بعد حق الأهل والولد والأقارب حق الجيران، وللجار في الإسلام حق أكيد على جاره أوصى به جبريل النبيَّ ﷺ وأوصى به النبي أصحابه وما زال يوصيهم حتى ظنوا أنه سيورثه.

وبعد الأهل والولد يأتي حق الخدم وإن كانوا رقيقاً، فينبغي لسيد البيت ألا يبخل بتعليمهم ما لهم وما عليهم فقد أصبحوا جزءاً من الأسرة. إن أحسنوا فلأنفُسِهم ولها. وإن أساؤوا فعلى أنفسهم وعليها.

روى البخاري في باب تعليم الرجل أمته وأهله، حديث أبي موسى أن النبي ﷺ، قال: « ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطلاق من صحيحه حديث ١٤٧٨، رواه أيضاً أحمد، والنسائي كما في تفسير ابن كثير جـ٣/٨٤١

(٢) اثنتان منها في سورة البقرة، وواحدة في آل عمران، وأخرى في الجمعة.

(٣) رواه الطبراني عن حكيم بن حزام، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير.

(٤) رواه الحاكم موقوفاً، وقال: صحيح على شرطها، ووافق الذهبي ٢/٤٩٤.

(٥) رواه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب وقال: حسن غريب مرسل، والحاكم وصححه. ورده الذهبي. ـ جـ٤/٥٠٣

ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة ، فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران » .

والأجر الأول لصاحب الأمة إنما هو على حسن تأديبها وتعليمها ، والأجر الثاني إعتاقها وتزوجها .

وقد انتهت هذه الوصايا النبوية المؤكدة ـ إلى جوار ما في القرآن ـ بأن جعلت كل مجموعة سكنية ـ قرية من القرى أو حي من الأحياء ـ وحدة مترابطة متكافلة في السراء والضراء ، في المجال المادي ، وفي المجال المعنوي على السواء .

ففي المجال المادي أو الاقتصادي يأبى النبي ـ ﷺ ـ أن يقبل في محيط أهل الإيمان من ينعم بالخير والرخاء لنفسه مغفلاً أمر جيرانه ، فيقول : « ليس بمؤمن ـ وفي رواية : ليس منا ـ من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم »[1] .

وفي المجال العقلي أو المعنوي يفرض على الجيران الذين رزقوا حظاً من العلم ، ألا يدعوا جيرانهم الذين لم يتح لهم أن يستنيروا بنور العلم ، دون أن يفقهوهم ، ويؤدوا إليهم زكاة عملهم ، كما يؤدون إليهم زكاة أموالهم .

وقد رويت في ذلك قصة جديرة أن تسجل وتروى :

عن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله ﷺ ، ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ، ثم قال : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ، ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ، ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ، ويفقهونهم ، ويعظونهم ، ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ، ويتعظون ، أو لأعاجلنهم

---

(١) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن ـ الفيض جـ٥/٤٠٧ .

العقوبة، ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قوماً بخير، وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال: ليعلمن قوم جيرانهم، وليعظنهم، وليأمرنهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتعظون، ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا، فقالوا: يا رسول الله أَنُفَطِّنُ غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم، ويعلموهم، ويعظوهم (في نسخة: يفقهونهم، ويعلمونهم ويعظونهم) ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: (لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم...) [الآية ٧٨ وما بعدها من سورة المائدة][1].

ويعلق المرحوم الدكتور مصطفى السباعي على هذا الحديث فيقول:

إنك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

١ ـ فالرسول عليه السلام لم يقر قوماً على الجهالة بجانب قوم متعلمين.

٢ ـ واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصياناً لأوامر الله وشريعته.

٣ ـ واعتبر ذلك أيضاً (عدواناً) و(منكراً) يوجبان اللعنة والعذاب.

٤ ـ وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعليم والتعلم.

٥ ـ وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم.

٦ ـ ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول أعلن ذلك المبدأ، بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريين وحدهم بدليل أن الأشعريين لما جاؤوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم: أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة.

إشعاراً بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين.

٣ ـ الترحيب بالمتعلم والبشاشة له:

ومن القيم التربوية الجليلة: ما سنه الرسول ـ ﷺ ـ للمعلم من آداب ينبغي أن تراعى مع المتعلم، حتى يؤتي التعليم أحسن الثمرات.

وأول آداب المعلم مع المتعلم أن يهش له، ويبش في وجهه، ويظهر له البشر والابتهاج، ويعلن عن الترحيب به، حتى تزول عنه الوحشة، وتنحل من نفسه العقدة، عقدة الخوف من المعلم، والرهبة من العلم.

وهذا ما كان يفعله النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه من بعده. عن قيس بن كثير، قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن النبي رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم.

قال: فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم.. الحديث[1]».

وعن صفوان بن عسال المرادي ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ـ ﷺ ـ وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: «مرحباً بطالب العلم! إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب»[2].

وهكذا كان موقف صفوان ممن يجيئه يطلب منه العلم ويسمع الحديث، فهو يرحب به، ويبشره بما بشره من قبل النبي ـ ﷺ.

---

(١) الحديث قد تقدم. وهذه الرواية عند أحمد في مسنده. انظر: الفتح الرباني جـ١ ص ١٤٩ حديث ١٣ من كتاب العلم.

(٢) رواه أحمد، والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وروى ابن ماجة نحوه باختصار. ترغيب. حديث ١٠٨.

وعن أبي سعيد أن النبي - ﷺ - قال: « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ وأفتوهم »[1] وفي رواية « وأقنوهم » أي: أرضوهم وأعينوهم.

وكان أبو سعيد إذا جاءه طلاب العلم قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ.[2]

ودرج الصحابة ومن بعدهم على قبول وصيته عليه الصلاة والسلام في الترحيب بالمتعلمين، وتكريمهم، واعانتهم أدبياً ومادياً على الاستمرار في طلبهم للعلم.

وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: مرحباً بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت، ريحان كل قبيلة[3]!.

وكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته، ويخصهم بمزيد الإكرام، وصنوف العناية في التكريم.

وكان البويطي يدنيهم ويقربهم، ويحضهم على الاشتغال، ويعاملهم بأشرف الأحوال[4].

٤ - الرفق بالمتعلم والحنو عليه:

ومن أدب المعلم في الإسلام أن يرفق بالمتعلم ويأخذ بيده، ويعامله معاملة الأب لولده، مقتدياً بالمعلم الأول، رسول الله ﷺ، الذي وصفه الله بقوله: (لقد جاءكم رسول من أنفسِكُم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [التوبة: آية: ١٢٨]. والذي وصف نفسه فقال: « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »[5].

---

(١) رواه ابن ماجة والطيالسي والديلمي، ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير. الفيض ج٤ حديث ٤٧٢٣.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ج١/١٨٠ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي

(٣) « جامع بيان العلم » ج١/١٢

(٤) فيض القدير ج٤/١١٧

(٥) قال في تخريج الإحياء: أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان من حديث أبي هريره.

وأهم ما يميز علاقة الأبوة بالبنوة هو الرحمة والرفق والحنو. وهذا ما ينبغي أن يحس به التلميذ من أستاذه، ويشعر بحبه له، وحرصه على نجاته وسعادته في الأولى والاخرة، ويغرس الحب والأخوة بين طلابه، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه، حتى يحب بعضهم بعضاً، ويعاون بعضهم بعضاً، ويعطف بعضهم على بعض، ولا يتباغضوا ويتحاسدوا. وكذلك كان علماء السلف في علاقاتهم بتلاميذهم.

يقول أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري: والله لو لم يأتوني لأتيتهم في بيوتهم، يعني أصحاب الحديث.[1]

وقال الربيع بن سليمان: قال لي الشافعي: يا ربيع لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه![2].

وقال الربيع: كان الشافعي ـ رحمه الله ـ يملي علينا في صحن المسجد فلحقته الشمس، فمر بعض إخوانه، فقال: يا أبا عبد الله، في الشمس؟! فأنشأ الشافعي يقول:[3]

أهين لهم نفسي لأكرمهم بها　　　ولن تكرم النفس التي لا تهينها!

ومن دلائل هذا الرفق أن يتبنى روح التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير. وهذا ما أوصى به النبي ـ ﷺ، من بعثه من أصحابه معلمين وهداة وقضاة، مثل: معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، حيث قال لهما ـ وقد بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»[4]

قال الحافظ في «الفتح» في شرحه لهذا الحديث:

«وفي الحديث: الأمر بالتيسير، والرفق بالرعية، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة، لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حد التكليف من الأطفال، ليتمكن الإيمان من قلبه، ويتمرن عليه.

وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد

---

(١)،(٢)،(٣) روى هذه الآثار ابن عبد البر في كتاب العلم ج١/١٤٢.

(٤) متفق عليه.

عليها، بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة ودامت عليها، نقلها لحال آخر، وزاد عليها أكثر من الأولى، حتى يصل إلى قدر احتمالها، ولا يكلفها بما لعلها تعجز عنه..»[1].

وفي حديث آخر: «علموا ويسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت[2]».

وفي آخر «علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف[3]».

وذلك أن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وهو يحب الرفق في الأمر كله ويجزي على الرفق مالا يجزي على العنف، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا دخل العنف في شيء إلا شانه. وأحق الأشياء بالرفق التعليم. فعلى العلماء ـ كما قال الماوردي ـ ألا يعنفوا متعلماً، ولا يحتقروا ناشئاً، ولا يستصغروا مبتدئاً، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم[4].

وكان النبي ـ ﷺ ـ، أرفق الناس بالمتعلمين، وأبعدهم عن التشديد، والتعسير، والفظاظة، والغلظة، وهذا ما نوه به القرآن من أخلاقه ﷺ، (فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفَضُّوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) [آل عمران: ١٥٩].

وكان الرجل يأتي من البادية، ويخاطبه باسمه مجرداً، ويناديه من بُعد، ويكلمه بجفوة، وأحيانا يستوقفه في الطريق، فيسع هذا كله لحلمه وحسن خلقه، ويجيبه عما سأل، وأكثر مما سأل. وقد يهم أصحابه به، أو يثورون في وجهه فيهدىء من ثورتهم، ويسكن من غضبهم

---

(١) فتح الباري ج ١٦ ص ٢٨٦ ط الحلبي

(٢) رواه أحمد، والبخارى في الأدب المفرد من حديث ابن عباس، ورمز السيوطي لصحته. واعترض المناوي بأنه فيه ليث بن أبي سليم. وهو مدلس، ولم يخرج له مسلم إلا مقروناً بغيره ـ الفيض جـ٤/٣٢٨ حديث ٥٤٨٠

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن عدي، والبيهقي في الشعب، وفيه راو منكر الحديث، لكن الزركشي جعل من شواهده حديث أبي موسى «يسرا ولا تعسرا»

(٤) فيض القدير جـ ٤/٣٢٨

عن أبي أيوب: أن أعرابياً عرض لرسول الله - ﷺ - وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: «يا رسول الله أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني عن النار. قال: فكف النبي - ﷺ - ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد هدي. قال: كيف قلت؟ فأعادها. فقال النبي - ﷺ -: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. دع الناقة[1]».

وسيأتي مزيد من صور الرفق في الإشفاق على المخطىء.

وقد تثار هنا قضية الضرب واستخدام العصا في التعليم، وخصوصاً بالنسبة للصغار. والتربويون في عصرنا ينكرون الضرب على الإطلاق.

والواقع أن الضرب في الأصل ينبغي أن يمنع، لأنه ينافي الرفق الذي تحدثنا عنه.

وقدوتنا في هذا معلمنا الأول رسول الله ﷺ، فقد روى عنه خادمه أنس، أنه ﷺ ما ضرب بيده شيئاً قط، لا امرأة، ولا خادماً، ولا دابة.[1]

ولم يشرع الإسلام ضرب الصغار، إلا في موضع واحد جاء به الحديث في تعويد الأبناء الصلاة قبل البلوغ، حتى يشبوا على أدائها ورعايتها: «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين[3]».

وهنا نلحظ أنه لم يُجزِ الضرب في سن الطفولة المبكرة. بل في سن العاشرة. ولم يجزه إلا بعد الأمر والدعوة والترغيب لمدة ثلاث سنين.

وإنما شرع الضرب في هذه الحال لإشعار الولد بجدية الأمر، وحرص الأب، وأهمية المطلوب منه، وعدم التهاون فيه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له ترغيب ٣٦٣٥

(٢) رواه البخاري وغيره

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وحسنه النووي في رياض الصالحين كما في الفيض جـ ٥ ص ٥٢١

فإن بعض الآباء قد يكتفي بكلمة عابرة يقولها للولد: صل يا بني. ثم لا يحاسبه بعد ذلك، صلى أم لم يصل؟ استجاب لأمر أبيه أم جعله دبر أذنيه؟..

وكما أن الأب الحازم لا يرضى أن يهمل ابنه أمره في شؤون الدنيا، فأحرى به أن يكون هذا موقفه مع ولده في شأن الدين، بل هو أهم وأولى.

ومنزلة المعلم منزلة الأب، فيجوز له ما يجوز للأب في بعض الأحيان، على أن يكون هذا استثناء من القاعدة الأصلية. وأن يكون ذلك ضرورة تقدر بقدرها.

وكما قال - ﷺ في شأن الأزواج: «لن يضرب خياركم» فهذا يقال للآباء والمعلمين أيضاً: لن يضرب خياركم.

(٥): الإشفاق على المخطىء:

ويتجلى الرفق كل الرفق في الإشفاق على المخطىء. فالخطأ لا يوجب مقابلة المخطىء بالعنف والقهر، أو التشنيع عليه أو السخرية به، فإن هذا قد يؤدي به إلى إذلال نفسيته وتحطيم شخصيته، وهذا ضرب من القتل المذموم ديناً وخلقاً أو يؤدي به إلى الإصرار على الخطأ، والتمادي في الباطل، والتحدي للحق، دفاعاً عن نفسه، وتسويغاً للغلط، وكلا الأمرين شديد الخطر، عظيم الضرر.

وأعظم نموذج للرفق بالمتعلمين إذا أخطأوا: هو رسول الله ﷺ. فهو خير من يقدر الظروف، ويراعي الأحوال، ويسع الناس جميعاً، حتى ذلك الأعرابي الجلف الذي لم يخجل أن يبول، في ركن من المسجد، أمام الناس، لم يغلظ عليه. وقابله بما ينبغي لمثله من الرفق واللين.

روى مسلم في صحيحه عن أنس قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه! (كلمة زجر) قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزرموه، دعوه»

فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله - ﷺ - دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل أو الصلاة، وقراءة القرآن» - أو كما قال رسول الله - ﷺ - قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه»[1].

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: «دخل أعرابي المسجد والنبي - ﷺ - جالس، فصلى، فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً فالتفت اليه النبي - ﷺ - فقال: «لقد تحجرت واسعاً».. فلم يلبث أن بال في المسجد فأسرع الناس، فقال النبي ﷺ: «أهريقوا عليه سجلاً من ماء - أو دلواً من ماء - ثم قال: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[2].

راعى الرسول الكريم بداوة الرجل ونشأته وظروف حياته، فلم يستجب لثورة أصحابه وهياجهم عليه، وعرفهم أن علاج الأمر سهل في مسجد لم يكن مفروشاً إلا بالحصباء، وهو صب دلو من ماء. ثم نبههم على طبيعة رسالتهم التي كلفوا حملها للناس، وهي التيسير لا التعسير.

وروى أبو أمامة: أن فتى من قريش جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنى؟ فأقبل القوم عليه وزجروه فقال: ﷺ: ادْنُه: فدنا فقال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك: قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته، وخالته. وفي كل ذلك يقول: أتحبه هكذا؟ فيقول: لا والله، جعلني الله فداك! فيقول ﷺ: ولا الناس يحبونه: ثم وضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[3].

فهذا شاب عارم الشهوة، ثائر الغريزة، صريح في التعبير عن نوازعه إلى

---

(١) الحديث رقم ٢٨٥ في صحيحه باب - ٣ - كتاب الطهارة جـ١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح: انظر: سنن الترمذي جـ١ باب ١١٢.

(٣) رواه أحمد، والطبراني في الكبير كما في جمع الفوائد وأعذب الموارد حديث ٢٤٠.

حد الإغراب والإثارة. ورغم غرابة طلبه الذي أثار الجالسين عليه، لم يكن منه ﷺ إلا أن لقيه بهذا الرفق العجيب والحوار الهادىء، الذي يحمل المنطق المقنع والروح المحبب، ثم أنهى هذا الحوار بلمسة حنان على صدر الفتى المتوقد، ومع اللمسة دعوات خالصة لله تعالى أن يغفر للفتى ويطهره ويحصنه، فإذا هو يخرج من مجلس الرسول الكريم، كأنما كان هذا اللقاء لنار شهوته، برداً وسلاماً.

ولا تظن أيها القاريء الكريم أن هذا الأثر الذي تركه موقف النبي ﷺ، في نفس الشاب من هدوء نفس وإعراض عن الزنى الذي كان يتوق إليه ويرغب فيه. كان معجزة خارقة للنبي عليه الصلاة والسلام، ولا تتكرر لغيره إلا من باب الكرامات، وخوارق العادات، كلا فإن أي معلم رباني الوجهة، نبوي الطريقة، يقتدي برسول الله ﷺ في سلوكه، قولاً وعملاً وروحاً، سيجد ـ بتوفيق الله تعالى ـ نفس الأثر، أو قريباً منه، وفقاً لسنة الله تعالى.

وأولى المخطئين بالإشفاق من كان خطؤه عن جهل أو غفلة، أو ضعف. وبخاصة من أخطأ لأول مرة، مثل الأعرابي، والشاب القرشي السابق ذكرهما.

ولكن قارىء السنة يجده عليه الصلاة والسلام يسع بحلمه، ورفقه من أصرّ على الخطأ والمعصية نتيجة ضعف إرادته، وغلبة عادته، استبقاء له في دائرة الإيمان، وفي حظيرة المؤمنين، وتنبيهاً له بحسن المعاملة على سوء صنيعه، عسى أن يستيقظ ضميره فيتوب من زلته، وينهض من سقطته.

وهل نجد مثلاً في هذا المجال أوضح من قصة ذلك الصحابي المعروف الذي اشتهر باسمه والذي ولع بالخمر إلى حد الإدمان، ولم يردعه أن ضُرِب فيها غير مرة، حتى قال بعض الصحابة يوماً، وقد ضاق صدرهُ بكثرة ما قبض عليه في هذه الجريمة: ما له لعنهُ الله؟ ما أكثر ما يؤتى به! وهنا تتجلى الرحمة المحمدية، والرفق النبوي الرفيع فيقول: «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك»، أو: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم». وفي رواية: «لا تلعنه

فإنه يحب الله ورسوله[1] ».

تنبيه المخطىء على خطئه:

وإياك أن تحسب أخي القارىء أن الرفق بالمخطىء يعني السكوت على خطئه والإغضاء عنه، وفي هذا إقرار للخطأ، بل تشجيع وإشاعة له.

كلا فالرفق بالمخطىء والإشفاق عليه لا ينافي تنبيهه على خطئه، بل زجره عنه بالرفق المناسب لظروف المخطىء ومدى خطئه ونوعه ودوافعه، وإرشاده إلى الصواب والوضع الصحيح بالتي هي أحسن، ولهذا رأيناه ﷺ بعد أن ترك الأعرابي يبول في المسجد دون أن تُقطع عليه بولته، وبعد أن أمر بصب دلو من ماء عليه. وبعد أن قال لأصحابه ما قال: « إنما بعثتم ميسرين » .. دعاه فقال له: « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن »، وفي هذا ـ كما يقول الإمام النووي ـ الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير إيذاء.

وكذلك حين دعا الأعرابي فقال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا احداً » نبهه النبي ﷺ برفق إلى أنه ضيق واسعاً، حين قصر طلب الرحمة له وللرسول دون غيرهما، مع أن رحمته تعالى وسعت كل شيء. ولهذا قال له: لقد تحجرت واسعاً!!

وقد يكون هذا التنبيه أو الإرشاد أو الزجر من باب التعريض لا التصريح، وبالتعميم لا بالتخصيص، ويدرك المخطىء حين يسمع اللفظ العام أنه المقصود مثل: « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ». مثل ما ذكروه في قصة من هاجر من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها وأطلق عليه بعض الصحابة « مهاجر أم قيس » وقالوا: إنه كان سبباً في ورود الحديث المشهور « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله

(١) انظر: فتح الباري ـ كتاب الحدود

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وطوراً يكون التنبيه على الخطأ غاية في الرفق، ورعاية الشعور كما في قصة أبي بكرة حين دخل المسجد، والنبي ﷺ في الركوع، فكبر من أول المسجد وركع، وظل يمشي راكعاً حتى وصل الصف. وكان ينبغي ألّا يكبر ويدخل في الصلاة حتى يصل إلى الصف ولا يصلي منفرداً خلف الصف، فلما بلغ رسول الله ﷺ فعله قال له هذه الكلمة الطيبة: «زادك الله حرصاً ولا تعد»[2].

فهذه الجملة الموجزة تتضمن دعاءً ونهياً. ففي الدعاء تقدير لنبل الدافع الذي دفع الصحابي الكريم إلى ما فعل، وهو الحرص على ألا تفوته الركعة في الجماعة مع النبي عليه السلام. وفي النهي إشعار له بخطئه لئلا يتكرر منه مرة أخرى دون أن يقول له: قد أخطأت.

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله؛ فرماني القوم بأبصارهم! فقلت: واثكل أمّاه ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم.. فلما رأيتهم يصمتونني، (أي: يسكتونني) لكني سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ. فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني، (أي: ما نهرني)، ولا ضربني ولا شتمني قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هي التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن. أو كما قال رسول الله ﷺ، قلت يا رسول الله: إني حديث عهدٍ به وقد جاء الله بالإسلام. وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: فلا تأتهم. قلت: ومنا رجال يتطيرون (يتشاءمون) قال: ذاك شيء يجدونه في

(١) راجع شرح الحافظ في «الفتح» على الحديث وبيان سبب وروده وهو أول حديث في صحيح البخار.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي في الصلاة كما في الجامع الصغير - ٤٥٥١

صدورهم، فلا يصدنهم[1]، (أي: عن وجهتهم).

فهذا العربي الغفل، الحديث العهد بالإسلام، يدخل الصلاة ويتصرف فيها كأنما هو في مجلس من مجالس القوم: يشمت العاطس، ويكلم من حوله، ويرد على من أنكر عليه، والصحابة يرون هذا منه وينبهونه بنظرات أعينهم وحركات أيديهم، وهو لا ينتبه إلى خطئه حتى فرغ من صلاته، وحكوا للنبي ﷺ ما صنعه في صلاته. وهنا تتجلى روح المعلم الحق، وأسلوبه الرفيق الرقيق في معالجة الخطأ وتنبيه المخطئين، وتعليم المبتدئين. وهو ما لحظه هذا الرجل الأمي البسيط بنور فطرته، وعبر عنه بعباراته القوية البليغة: بأبي هو وأمي. ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني.

كل ما فعله عليه الصلاة والسلام: أنه نبهه على خطئه دون أن يقول له: أخطأت وأسأت، ولم تعرف للصلاة قدرها، ونحو ذلك من العبارات القاسية. إنما بين له حقيقة الصلاة وما لا يليق من القول أن يدخل فيها: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

وكذلك يجب أن يكون المعلمون الصادقون.

وفي قصة تخيير نسائه ﷺ التي نزل بها القرآن في [سورة الأحزاب ٢٨-٢٩]: (يـاأيها النبي قُل لأزواجكَ إن كُنتُنَّ تُردن الحياة الدنيا وزينَتَها فَتَعَالَيْن أُمتّعكُن وأُسرِّحكُنَّ سراحاً جميلاً. وإن كُنتن تُردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات مِنكُن أجراً عظيماً)، أقبل النبي ﷺ على نسائه يعرض عليهن ما أمره الله به من التخيير، وبدأ بعائشة رضي الله عنها، فعرض عليها أن تختار أحد أمرين: إما الله ورسوله والدار الآخرة، على ما في ذلك من الكفاف، وحياة التقشف والزهد، وخشونة العيش، وإما الدنيا وزينتها فلها حق المتعة والسراح الجميل.، وطلب إليها أن تتريث في

(١) رواه مسلم ـ حديث ٥٣٧.

الأمر وألاّ تقطع فيه برأي حتى تشاور أبويها. وهنا قالت عائشة في حسم ويقين: أفيك أستأمر أبويّ يا رسول الله؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. ثم بدت الطبيعة البشرية النسوية فغلبت على عائشة. فطلبت منه عليه الصلاة والسلام ألّا يخبر أحداً من نسائه بما اختارته حتى لا يؤثر موقفها في موقفهن، كأنما تريد لهن جميعاً أن يخترن الدنيا وزينتها وتنفرد هي بهذه المزية، ويخلو لها وجهه ﷺ. وهنا يتجلى المعنى التربوي الكبير في موقفه عليه الصلاة والسلام، حين قال لها: «يا عائشة إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً»[1].

فلم يُقر الصديقة بنت الصديق على نزعتها تلك، وبين لها وظيفته التي لا يتركها ولا تتركه، وهي: أنه معلم، ومعلم ميسر، غير معنت ولا متعنت.

قال العلامة المناوي: فيه إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف، والتعريض ما أمكن من غير تصريح، وبطريق الرحمه من غير توبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويروث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار. (ذكره الغزالي)[2].

غير أننا نجد النبي ﷺ، يزجر عائشة نفسها على خطأ ارتكبته في موقف آخر، وكان الزجر بطريقة فيها لون من الشدة يغاير ما ذكرناه سابقاً. وذلك أنها اعتدت على حق ضرة من ضرائرها من أمهات المؤمنين، فقد قالت للرسول ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعني: قصيرة فقال: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[3].

يعني: أن هذه الكلمة أو هذه الإشارة التي لم تصل إلى التصريح الكامل

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) نقله المناوي في فيض القدير.
(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح - ترغيب ٤٠٩٢

جديرة بأن تعكر بحراً، على عمقه وسعته، هذا مع أنها أحب نسائه إليه.

وأحياناً يشتد النكير ويعلو الصوت بالتنديد، في غير إسفاف ولا إسراف، وذلك حين لا يكون الخطأ مجرد خطأ في سلوك جزئي فردي، بل يمثل بداية انحراف في الاتجاه، وفي المنهج، كقوله لعمر حين رأى معه بعض كتب أهل الكتاب المحرّفة ـ :« أمتهوكون ـ أي: أمتحيرون ـ فيها يا ابن الخطاب، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني »[١]. ونحو ذلك لما شكا إليه بعض أصحابه أنه يتأخر عن الجماعة لما يجد من تطويل الإمام بهم، إلى حد جعله يهرب من الصلاة في الجماعة. قال أبو مسعود الأنصاري راوي هذا الحديث: فما رأيت النبي ـ ﷺ ـ في موعظة أشد غضباً من يومئذ. فقال: « يا أيها الناس، إنكم منفرون! فمن صلى بالناس، فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة »[٢].

وتشتد اللهجة بالإنكار أكثر وأكثر حينما يتمثل هذا الانحراف في جماعة أو كتلة كقوله ـ حينما تنادى الأوس: ياللأوس: وتنادى الخزرج: ياللخزرج!: « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ »[٣].

وقوله للثلاثة الذين قرر أحدهم قيام الليل كله، والثاني صيام الدهر كله، والثالث اعتزال النساء أبداً: « أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[٤].

ومثل ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أنه ﷺ سمع قوماً يتمارون في القرآن، فقال: « إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا

---

(١) سيأتي تخريجه في الفصل الخامس.

(٢) رواه البخاري ـ باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن إسحاق.

(٤) رواه البخاري.

تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»[1].

وفي بعض الروايات: أن تنازعهم كان في القدر.

وفي بعضها: أنه خرج عليهم كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان[2]، أي: من شدة الغضب، وإنما أغضبه التدافع والمراء في القرآن، وضرب آياته بعضها ببعض، فإن هذا بداية فتنة في الفكر والعقيدة لا يعلمها إلا الله، لأن القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويجمعهم على كلمة سواء، فإذا أصبح هو مجالاً للتنازع والمراء والاختلاف، فقد أصبح محتاجاً إلى حاكم آخر يحسم النزاع، ويصفي الخلاف. وهذا مبتدأ تمزق الأمم، وشيوع الانحرافات والأهواء والبدع. وهذا ما أهلك الأمم من قبل، وهو خليق أن يهلك هذه الأمة من بعد، ومن ثم كان غضبه وزجره صلى الله عليه وسلم.

٦ - تشجيع المحسن والثناء عليه:

وإذا كان من الأسس النافعة في التعليم والتربية تسديد المخطىء والأخذ بيده في رفق، فإن مما يكملها تشجيع من أصاب وأحسن، والإشادة بإحسانه، والثناء عليه، ليزداد نشاطاً في الخير، وإقبالاً على العلم والعمل، ويضيف إحساناً إلى إحسان وهكذا كان ﷺ.

كان أبو موسى الأشعري حسن التلاوة للقرآن، فقال له النبي - ﷺ: - «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[3]، يعني بآل داود: داود نفسه.

وقال له يوماً: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة»! (أي: لسرك

---

(١) رواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه

(٢) انظر: الحديث ٤٢ من كتاب القدر - الفتح الرباني جـ١/ ١٤٢ وفيه: قال البوصيري في زوائد ابن ماجة: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسى. انظر رياض الصالحين (١٠٠٣)

ذلك)، فقال أبو موسى: يا رسول الله، لو أعلم أنك تسمعه لحبّرته لك تحبيراً[1].

وعن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ -: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) (يعني الآية المعروفة بآية الكرسي) فضرب في صدري وقال: «ليَهنك العلم أبا المنذر».

ومن قرأ كتاب المناقب، أو الفضائل في صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، أو غيرهما من كتب الحديث يجد نصوصاً تحمل الثناء على واحد. أو جماعة من أصحاب النبي ﷺ. ولم يكن يلقي النبي ﷺ ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطاً، أو مجاملة، بل كانت تقديراً لمن يستحق التقدير، وتكريماً لمن هو أهل للتكريم، كما أثنى على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من كبار الصحابة في مواقف شتى

وقال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: «ارم فداك أبي وأمي»!

وقدم أهل اليمن على رسول - ﷺ - فقالوا: «ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام. قال فأخذ بيد أبي عبيدة، فقال: «هذا أمين هذه الأمة».

وقال - ﷺ - خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد (يعني ابن مسعود)، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة[2]. وأثنى على أبي هريرة لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ وفي حديث اشتهر عنه، ذكر عدداً من أصحابه كل بأبرز ما يميزه من الفضائل، فقال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر.. وأشدهم في الله عمر، وفيه: أن أقضاهم علي،

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر: هذه الأحاديث كلها في الصحيحين - كتاب فضائل الصحابة.

وأفرضهم، (أي: أعلمهم بالفرائض وهي المواريث) زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل[1] . الخ»

وهكذا كان ﷺ ينوه بأقدار الفضلاء من أصحابه، وبذوي المواهب المتميزة منهم، ليعرف الناس ذلك لهم، ويأخذوا عنهم وينتفعوا بهم. كما ذم النبي ﷺ، في حديث له صنفاً من الأئمة: «الذي إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر[2]» وإذا كان هذا مذموماً في الرؤساء، فهو مذموم كذلك في المعلمين.

وكذلك ينبغي لكل معلم راشد أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه ـ وينوّه بكل من له موهبة أو قدرة، ولينمي فيه الطموح بالحق، والتفوق بالعدل، ولينبه الآخرين على فضلهم، فينافسوهم في الخير إن استطاعوا، أو يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا. وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر في شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه ـ بتوفيق الله تعالى ـ نابغة من نوابغ العلم.

ومن طلاب العلم من أوتي الموهبة والذكاء والقدرة على الفهم والتحليل والتحصيل، ولكن تنقصه الثقة بالنفس والأمل في الغد، فما أحوجه إلى كلمة من أستاذ مرشد تنفعه وترفعه.

ذكر يوسف بن يعقوب بن الماجشون: أنه كان هو وأخ له وابن عم ـ يطلبون العلم عند ابن شهاب الزهري فقال لهم: لا تحقروا أنفُسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم، يبتغي حِدة عقولهم[3].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الطبراني عن فضالة بن عبيد بإسناد لا بأس به ـ الترغيب ٣٧٠٥

(٣) «جامع بيان العلم» ج ١٠٢/١.

٧ ـ التدرج في التعليم :

ومن المبادىء التي حرص عليها الإسلام في جميع المجالات ـ ومجالات التربية خاصة ـ ، وجاءت بها السنة القولية والعملية: التدرج في التعليم.

وهذا واضح في جانب التكليف والتشريع. فقد كان التكليف في العهد المكي مقصوراً على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق. ثم فرضت الصلاة قبيل الهجرة. وفرضت في أول الأمر ركعتين ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر.

وفي المدينة فرضت بقية الفرائض، كما حرمت الخمر والربا وغيرهما. كل ذلك بمنهج تدرجي حكيم يسهل على المكلفين امتثال الأمر واجتناب النهي في غير حرج ولا إعنات.

وهكذا كان الرسول الكريم يعلم أصحابه: أن يأخذوا بسنة «التدرج» التي هي سنة الله في الحياة والوجود كله.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم. الحديث[١] » فقوله: «تأتي قوماً من أهل الكتاب» كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة. فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبته الجهال من عبدة الأوثان[٢].

ثم أمره أن يبدأ دعوته بأمر العقيدة، فيدعوهم إلى الشهادتين. لأنهما باب الدخول في الإسلام، وأصل الدين كله، ولا تقبل عبادة ولا عمل بغير الإقرار بهما والإذعان لهما.

---

(١) رواه الجماعة كما في المنتقى وشرحه جـ ٤/١٧٠

(٢) انظر المصدر السابق.

فإن هم أطاعوا لذلك ورضوا بالله رباً، وبمحمد رسولاً، أعلمهم بالفريضة اليومية والعبادة العملية الأولى، التي هي الرباط الدائم بين الإنسان وربه، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر وهي الصلاة عمود الإسلام.

فإن هم عرفوا ذلك واستجابوا له، أعلمهم بالفريضة العملية الثانية ـ وهي شقيقة الصلاة في القرآن والسنة، والرباط الاجتماعي والاقتصادي بين المسلمين بعضهم وبعض، وهي الزكاة، قنطرة الإسلام.

وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة ويكون التعليم.

والتدرج ذو شقين: شق يتعلق بالكم، وشق يتعلق بالكيف.

فالأول يعني: أن يعطي المتعلم من العلم المقدار الملائم له، ولا يكثّر عليه الأستاذ، ويحمله ما لا يطيق، فينوء به، ويضيعه كله، فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة، فيضيع بذلك الكثير والقليل. والعلم متين كالدين، فيجب أن يوغل فيه برفق، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وفي هذا أوصى الزهري تلميذه يونس بن زيد فقال: يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه. ولكن خذه مع الأيام والليالي. ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة! ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي (1)

والشيء الثاني في التدرج: هو ما يتعلق بالكيف والنوع. على معنى أن يبدأ الأستاذ مع طلابه بالجلي من العلم قبل الخفي، والبسيط قبل المركب، وبالخفيف قبل الثقيل، والجزئي قبل الكلي، وبالعملي قبل النظري.

ومن الحكم المأثورة: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده[2].

---

(1) «جامع بيان العلم» ج ١/١٢٥

(2) «الفتح» ج ١/١٧١

والمهم ألا يبدأ المعلم تلاميذه بدقائق العلم، وعويص مسائله، فيغرقهم في بحر عميق لا يستطيعون النجاة منه. بل يبدؤهم بالأسهل والأيسر، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالباً الازدياد منه بخلاف ضده[1].

وقد كان كثير من كبار العلماء يؤلفون كتبهم متدرجة وفق مراتب الترقي في الطلب. فالغزالي ـ مثلاً ـ يؤلف في فقه الشافعية: الوجيز ثم الوسيط، ثم المبسوط. وابن قدامة يؤلف في فقه الحنابلة على الترتيب التصاعدي: العمدة ثم المقنع، ثم الكافي، ثم المغني.

وهكذا كانوا يكتبون لكل مرحلة في الطلب ما يليق بها، فالمبتدىء غير المتوسط غير المنتهي.

وكذلك ينبغي أن تراعى مراحل العمر. فيعطى للصبي غير ما يعطى للمراهق، غير ما يعطى للناضج.

وهذا ما يحرص عليه رجال التربية اليوم في وضع المناهج، وفي تأليف الكتب.

٨ ـ رعاية الفروق الفردية:

ومن آداب التعليم ومبادئه وقيمه الأصيلة التي جاءت بها السنة: مراعاة الفروق بين الناس بعضهم وبعض: الفروق الفردية أو البيئية أو النوعية.

فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر. وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها. وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنه والعصور.

والمعلم الموفق هو الذي يعطي كل إنسان ـ فرداً أو جماعة ـ من العلم ما يلائمه ويصلح له، وبالقدر الذي يصلح به، وفي الوقت الذي ينتفع به.

وكان معلم البشرية الأول خير المراعين لهذا الجانب، نظراً وتطبيقاً.

ومن الأدلة على اعتبار هذه الفروق ومراعاتها بالفعل عدة أمور.

---

(١) نفسه / ١٧٣.

١ ـ اختلاف وصاياه ـ ﷺ ـ باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية.

٢ ـ اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين.

٣ ـ اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم.

٤ ـ اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.

٥ ـ قبوله من بعض الأفراد موقفاً أو سلوكاً لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف.

وفي البند الأول: نجد أناساً عديدين سألوه ـ ﷺ ـ أن يوصيهم إما مطلقاً، وإما مقيداً بما يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار، أو نحو ذلك من العبارات الجامعة... فأوصاهم بوصايا مختلفة:

فبعضهم قال له: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم».

وبعضهم قال له: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

وبعضهم قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

وبعضهم قال له: «لا تغضب» ولم يزد على ذلك.

وهكذا كان يراعي ـ ﷺ ـ حال المستوصي، ويعطي كل واحد ما يراه أحوج إليه. فشأنه مع السائلين كالطبيب مع المرضى، يعطي كل واحد من الدواء ما يناسبه.

وفي البند الثاني: نجده ـ ﷺ ـ يسأل: «أي العمل أفضل؟»، أو: «أي الإسلام أفضل؟» فنراه يجيب هذا بغير ما يجيب به ذاك.

فعن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله ﷺ، أي الأعمال أحب إلى

الله فقال الصلاة على وقتها . قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله[1].

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «نعم». قال: قلت يا رسول الله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا رسول الله ثم مه؟ (أي: ثم ماذا؟) قال: «ثم صلة الرحم». قال: قلت يا رسول الله، ثم مه؟: قال: «ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»... الحديث.

ولا تفسير لهذا الاختلاف في الجواب مع اتحاد السؤال، إلا مراعاة أحوال السائلين، وما بينهم من فروق يجب اعتبارها.

ولما سأله النساء عن الجهاد قال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور[2]».

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى قال: قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وفيه عن عبد الله بن عمر: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف.[3]».

والسؤال الثاني: كالأول وإن اختلف الألفاظ، لكن الجواب ليس واحداً. كما قلنا من اختلاف أحوال السائلين، أو السامعين، فالجواب في السؤال الأول وجه العناية إلى تحذير من خشي منه الإيذاء بيد أو لسان، فأرشد إلى كفهما عن الأذى وفي الثاني كان الاهتمام بترغيب من رجا فيه النفع العام بالفعل والقول، فأرشده إليهما وخص الخصلتين المذكورتين بالتنويه لمسيس الحاجة إليهما في ذلك الوقت. لما كانوا فيه من الجهد والفاقة ولمصلحة تأليف القلوب[4].

وأوضح من ذلك اختلاف الجواب عن السؤال الواحد في قضية واحدة في

---

(١) رواه البخاري ومسلم، كما في الترغيب حديث ٣٥٨٢

(٢) رواه البخاري.

(٣) الحديثان ذكرهما في كتاب الإيمان.

(٤) الفتح جـ١/٦٢

مجلس واحد ـ روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنا عند النبي ﷺ ـ فجاء شاب ـ فقال: يا رسول الله أُقبل وأنا صائم؟ فقال: لا. فجاء شيخ فقال: يا رسول الله، أقبل وأنا صائم؟ قال: نعم، فنظر بعضنا إلى بعض! فقال رسول الله ﷺ: قد علمت نظر بعضكم إلى بعض. إن الشيخ يملك نفسه[1].

وهذا من الأدلة الشرعية لما قرره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال.

وفي البند الثالث: نجده ـ ﷺ ـ يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الذين ربوا في حجـر النبوة، ويغتفر لأولئك ما لا يغتفر لهؤلاء، ويتألف قلوب «مسلمة الفتح»، وزعماء القبائل بما لا يصنع مثله مع المهاجرين والأنصار، ويعامل أصحابه أيضاً على منازلهم وطبائعهم فهو يغطي فخذيه أو ساقيه، ويسوي ثيابه عند دخول عثمان عليه، ولم يفعل ذلك مع أبي بكر وعمر، مراعياً طبع الحياء في عثمان قائلا: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟» وقد لاحظت عائشة ذلك: فقالت: يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليّ في حاجته[2]». وإذا دخل عليه كريم قوم أكرمه، وإذا دخل عليه سفيه أو شرير داراه بطلاقة الوجه أو بكلمة طيبة ـ دون مداهنة أو مدح بالباطل ـ تألفاً له، واتقاء لشره.

ويحدث معاذاً ببعض المبشرات فيمن مات على التوحيد، ولا يأذن له بأن يبشر بها جمهور الناس مخافة أن يتكلوا[3].

والبند الرابع: نجده ﷺ يكلف كل إنسان، بما يقدر عليه، وما يليق به، وما يلائم حاله.

---

(١) حديث (٧٠٥٤) ح ١٢، قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» مع أن فيه ابن لهيعة وقد وثقه الشيخ رحمه الله ويشهد له حديث أبي هريرة عند أبي داود في نفس المعنى.

(٢) رواه مسلم عن سعيد بن العاص: أي عائشة وعثمان ـ حدثاه.. حديث ٢٤٠٢.

(٣) صحيح البخاري ـ باب من خص قوما، انظر: الفتح ج١/٢٣٦

ففي حدث كحدث الهجرة إلى المدينة والاختفاء إلى غار حراء، نراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكلف عدداً من الأشخاص بعدد من المهمات المتنوعة، كل فيما يناسبه، فأبو بكر كلف رفقته بعد تكليفه إعداد الرواحل. وعلي كلف المبيت في مكانه ـ ﷺ ـ احتمالاً لأي خطر. وأسماء بنت أبي بكر كلفت ما يليق بها من حمل الطعام والأخبار إلى رفيقي الغار، وعبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة كل منهما له دوره. وهكذا نجده ﷺ، يولي خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص على بعض السرايا الحربية، على حين كلف حسان بن ثابت بأن يدافع عنه ـ أمام هجاء الشعراء من قريش ـ بسلاح الشعر الذي هو أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام، ولم يجب أبا ذر إلى طلبه حين سأله أن يوليه، لما يعرف من صرامته وحدة طبعه.

وفي البند الخامس: نجده ﷺ يقبل من بعض الأعراب الاقتصار على أداء الفرائض، حتى قال له بعضهم: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» فقال: «أفلح إن صدق». وفي حديث: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا». على حين لم يقل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار.

وهذا هو موقف المربي الحق، والمعلم المرشد من طلابه وأصحابه أن يراعي ظروفهم، وقدراتهم العامة، والخاصة وأحوال كل فئة منهم، بل كل واحد منهم ليعالجه بما يناسبه، فلا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير، ولا يخاطب الفتاة بما يخاطب به الفتى، ولا يعطي العوام ما يعطيه للخواص، ولا يكلف الذكي ما يكلفه الغبي ولا يأمر البدوي بما يأمر به الحضري، بل يعطي لكل متعلم على قدره وقدرته.

ومن العجز بل الإثم أن يبث المعلم كل ما عنده لكل من يجده دون تمييز بين مَن يفهم ومَن لا يفهم، وبين من ينتفع بما يسمع ومن يتضرر به.

وفي الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[1].

وهذا ماحذر منه علماء الصحابة رضوان الله عليهم.

(١) رواه مسلم في مقدمة الصحيح من حديث أبي هريرة.

يقول علي: حدثوا الناس بما يعرفون، اتحبون أن يكذب الله ورسوله؟![1]

ويقول ابن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[2].

وليس هذا من كتمان العلم، بل من حسن إنفاقه في محله، وإعطائه لمن هو أهله، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال. ومن الحكم المأثورة: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وقد ذكر الغزالي في «إحيائه»: أن من وظائف المعلم: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه مالا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله، اقتداء بسيد البشر ﷺ، ولا يبث إليه الحقيقة إلّا إذا علم أنه يستقل بفهمها. وقد قال علي رضي الله عنه، وأشار إلى صدره: إن هنا لعلوماً جمة لو وُجدت لها حملة! فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد. وهذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟.. ولذلك قيل: كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه، وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وقد قال تعالى: (ولا تُؤتوا السفهاء أموالَكُم) تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى. وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق[3].

ويقول الغزالي أيضاً: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقى إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له: إن وراء هذا تدقيقاً، وهو يدخره عنه، فان ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق!.. بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة النار، لما نطق به

(١) رواه البخاري في الصحيح - كتاب العلم - باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهة ألا يفهموا.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «الإحياء» ج١/٥٧، ٥٨.

القرآن، ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلق الشبهة بقلبه، ويعسر عليه حلها، فيشقى ويهلك[١] ...».

والمقصود: أن المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول، بما يناسبها، وليس كل دواء يصلح لكل داء.

٩ ـ الاعتدال وعدم الإملال:

ومن المبادىء المرعية في التعليم والمقتبسة من هدي النبوة: الاقتصاد في التعليم، والاعتدال في قدر ما يلقى من الموعظة، والمعلومات، في زمانه، وفي نوعه حتى لا يؤدي الإكثار إلى الإملال.

روى البخاري بسنده عن أبي وائل قال: كان عبد الله (يعني ابن مسعود)، يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم. وإني أتخولكم (أي: أتعهدكم) بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[٢].

وروى البخاري أيضاً عن عكرمة: أن ابن عباس قال: حدث الناس مرة في الجمعة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاثاً. ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينّك تأتي القوم وهم في حديث من أحاديثهم فتملهم. ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه[٣].

وكان ابن مسعود يقول: إن للقلوب لنشاطاً واقبالاً، وإن لها تولية وإدباراً، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم[٤].

وقال الحسن البصري: كان يقال: حَدِّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات[٥].

---

(١) «الإحياء» ج١/٥٨.

(٢) انظر: البخاري مع الفتح ج١/١٧٣

(٣) «جمع الفوائد» ج١ حديث ٢٣٥.

(٤ ـ ٥) «سنن لدارمي» ج١/٩٨ باب: من كره أن يمل الناس.

ومعنى هذا: أن على المعلم ـ كما على الداعية والمحدّث ـ أن يراعي الطاقة النفسية للناس، فإن من يستمع أو يتعلم وهو كاره لا يستفيد مما يتلقاه ـ فهو يسمع بأذنه ولا يعي بقلبه. وكما أن للإنسان طاقة بدنية محدودة يجب أن تراعى، فلا يحمل من الأثقال المادية ما لا يطيق. فكذلك طاقته النفسية.

وعلى هذا الأساس يجب أن توضع مناهج التعليم وتؤلف كتبه، وتحدد مقرراته بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم نشيطون راغبون.

ومن حسن الطريقة في التعليم أن يدخل المعلم على درسه بعض المروحات عن النفس من الملح، أو الطرائف، أو الأشعار حتى لا تسأم النفوس وتمل القلوب، وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً.

وقد رويت عنه ألوان من الدعابة الحلوة التي تدخل على القلوب الأنس بلا إسفاف ولا إسراف[1].

وقال علي: اجمعوا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة فإنها تمل، كما تمل الأبدان.

وعنه أيضاً: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمي.

وقال أبو خالد الوالي: كنا نجالس ـ أصحاب النبي ﷺ، فيتناشدون الأشعار ويتذكرون أيامهم في الجاهلية.

وكان القاسم بن محمد ـ أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين ـ إذا أكثروا عليه من المسائل قال: إن لحديث العرب، وحديث الناس نصيباً من الحديث فلّا تكثروا علينا من هذا.

وكان ابن شهاب الزهري يحدث ثم يقول: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم، فإن الأذن مجاجة: والنفس حمضة.

وفي هذا اللون من ترويح الأنفس فائدتان:

الأولى: مطاردة السآمة، وإزالة آثار ما يصيب البدن من كلل، والنفس من

---

(١) روت كتب السنة من ذلك أكثر من واقعة.

ملل، نتيجة مواصلة الدأب والتكرار اليومي الرتيب. وهو ما أشار إليه الإمام علي فيما ذكرناه من قوله رضي الله عنه. وفيه يقول الشاعر:

والنفس تسأم إن تطاول جدها   فاكشف سآمة جدها بمزاح

والثانية: تنشيط النفس لمواصلة السعي إلى الجد، ومعاناة البحث عن الحقيقة مهما تكن مشقة الطريق إليها، وفي هذا قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق.

ولكن ينبغي هنا مراعاة أمرين:

الأول: ألا يكون في هذه الملح والطرف تجاوز أو إسفاف، مما لا يليق بمجلس العلم وأهله، فمجلس العلم ليس مسرحاً أو ملهى.

الثاني: أن تكون بالقدر المناسب بحيث يكون الجد هو الأصل والقاعدة وهذه هي الاستثناء. فإن كل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. حتى العبادة قد كره الغلو فيها، فكيف بالمباح وكيف باللهو منه؟

وفي هذا جاء عن علي رضي الله عنه قوله: أعط الكلام من المزح بمقدار ما تعطي الطعام من الملح.

١٠ ـ استغلال المواقف العملية للتربية والتوجيه:

ومن المباديء التربوية التي ورثتها لنا سنة نبينا ﷺ: استغلال المواقف الواقعية، والتصرفات العملية التي تقتضي موقفاً تعليمياً معيناً، وإلقاء توجيه تربوي خاص، ليأخذ المتعلمون منه درساً إيجابياً لا ينسى.

وذلك لارتباطه بالواقع المشاهد، وصلته بمناسبة لابسها الناس وعايشوها، فهنا ترسخ في الذهن وتثبت في القلب، ولا تحتاج إلى تطويل أو تكرار.

وهكذا كان الرسول العظيم، لا يدع فرصة من هذه الفرص التي يتيحها القدر للناس في حياتهم ـ تمر دون أن يجعل منها درساً بليغاً، وموعظة مؤثرة كثيراً ما تدمع منها العيون وتوجل لها القلوب.

ومن منا يجهل موقفه يوم أهم قريشاً أمر المرأة المخزومية التي سرقت، وعز عليهم أن تنفذ فيها عقوبة القطع التي أمر الله بها في كتابه للسارقة وللسارق (جزاء بما كسبا. نكالاً من الله)؟

ولجأوا إلى أسامة بن زيد حب رسول الله، وابن حبه يشفعونه في هذا الأمر الخطير: أن يعفي المرأة من حد القطع، ويقبل منها أي غرامة أو عقوبة أخرى. ناسين أن العاطفة شيء، وإقامة حد الله شيء آخر. فكان لا بد من درس مبدئي يثبت معنى المساواة في العقوبات، كما هي ثابتة في كل التكاليف، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس: أشراف وعامة ويعلن في قوة أن شرع الله يسود الجميع ويحكم الجميع، وكلمته هي العليا. وكل كلمة عداه هي السفلى.

هنا جاء الدرس التربوي في حينه وفي موضعه، فسمعته الآذان، وفقهته العقول، ووعته القلوب: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!

ومن نسي فلن ينسى موقفه ﷺ - يوم مات ابنه إبراهيم، واتفق أن كسفت الشمس في نفس ذلك اليوم، وكانت مناسبة ليقول قائلون: أنها كسفت لموت ابن رسول الله، وكان مثل هذا الاعتقاد رائجاً في الجاهلية: انكساف الشمس أو القمر لموت عظيم من العظماء. ولو كان ﷺ من أولئك الذين يبنون لأنفسهم، ولأسرهم عظمة زائفة عن طريق الدجل، والمبالغات لسكت على هذا القول، الذي يوافق ما كان معروفاً عند الناس، ولكنه انتهز الفرصة ليصحح المفاهيم، ويطارد الخرافة، ويقرر الحقيقة العلمية النافعة، وقال في وضوح مؤمن، وفي إيمان واضح: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته».

وقدم يوماً إلى رسول الله ﷺ جماعة من عرب مضر، فقراء بدت عليهم

الفاقة والحاجة، وتألم الرسول لما رآهم على هذه الحالة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب يحث الناس على الصدقة على هؤلاء ولو بشق تمرة.

وهنا سبق بالفضل رجل من الأنصار، بعد أن أمسك الناس - وجاء بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت.. وكانت بداية طيبة، وأسوة حسنة قال جرير راوي الحديث: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ، يتهلل كأنه مذهبه..(صحيفة منقشة بالذهب)..

وعندئذ كان المقام مناسباً للتنويه بمن يبدأ في عمل خير يقتدي الناس به فيه.. فقال رسول الله - ﷺ -: « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء[1] ». وبهذا يرتبط العلم بالحياة، ويتصل الدرس بالواقع، ولا يعيش المعلم مع الكتب وحدها، بعيداً عما تمر به الحياة من أحداث.

١١ - استخدام الوسائل المعينة:

ومن المبادىء التربوية الأصيلة في سنة الرسول المعلم: أن يستعين بكل وسيلة بصرية أو سمعية متاحة، مما يساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة.

ومن المعروف أن البيئة لم تكن تساعد على توفير هذه الوسائل، والرسول ﷺ نفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الذي يهمنا هنا هو تقرير المبدأ والفكرة أولاً، وتطبيقها في الحدود المتاحة ثانياً.

وهنا نجد بعض الأمثلة البينة للدلالة على ما نقول:

يروي ابن مسعود رضي الله عنه فيقول:

خط لنا رسول الله ﷺ، خطاً بيده، ثم قال: « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ثم قال: « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان

(١) رواه مسلم، (١٠١٧)، وابن ماجه، والترمذي باختصار القصة - ترغيب - ٩٤.

يدعو إليه ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقياً فاتَّبعوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُل فتفرَّق بكُم عن سبيله..) [الأنعام: ١٥٣].

فترى في هذا الحديث أن النبي - ﷺ - يفسر لأصحابه الوصية الأخيرة من الوصايا العشر في سورة الأنعام، ولكنه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرمل، يخط عليه بيده بدل اللوح، وهو هنا يرسم صراط الله المذكور في الآية الكريمة في صورة خط مستقيم ولهذا قال: هذا سبيل الله مستقياً، ويرسم السبل الأخرى التي حذرت الآية من اتباعها في صورة خطوط متعرجة عن يمين الخط الأوسط المستقيم وشماله، ثم يشير إليها قائلاً: «هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم يختم هذا التوضيح العملي بقراءة الآية الكريمة، فتقع أعظم موقع في نفس السامع المشاهد وعقله. فهنا اشتراك البصر مع السمع في استيعاب معنى الآية، وفهم مراد الله تعالى منها.

وعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، مر بالسوق، والناس كنفتيه، (أي: عن جانبيه) فمر بجدي أسَكّ، (أي: صغير الأذن) ميت، فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء. وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً لكان عيباً فيه، لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: فوالله للدنيا أهونُ على الله عز وجل من هذا عليكم[1].

فانظر يا أخي القارىء كيف بين النبي ﷺ، المفهوم الذي أراد إيصاله إلى أصحابه مستخدماً هذه الوسيلة العجيبة من الوسائل المعينة. إنها وسيلة لم يشترها، ولم يصنعها، ولم يتكلف أو يفتعل في الاستعانة بها. إنها وسيلة يراها الناس، ويمرون بها كثيراً، ولكن النبي ﷺ، أراد أن يتخذ منها أداة لتوضيح قيمة الدنيا التي يتهافت الناس بل يقتتلون عليها. إن هذا الدرس في تفاهة الدنيا عند الله - بجوار الآخرة - لا يمكن أن يُمْحى من الذهن أو

---

(١) رواه مسلم - ترغيب ٢٦٤٤.

يُنْسى من الذاكرة لارتباطه بالجدي الأسك الميت، وبمسلك النبي ﷺ. وهو يأخذ بأذنه ويسألهم: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ ويجيبون، ويسألهم حتى يقرر لهم الحقيقة المرادة في النهاية «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»(١).

وغير هذا كثير مما استخدمه النبي ﷺ، وسيلة إيضاح. أو وسيلة معينة على غرس القيمة الدينية، والخلقة، أو العقلبة التي يحرص على تعلمها

ومن الأساليب المعينة على الفهم والاستيعاب، المثبتة للمعنى المطلوب أسلوب الإشارة الحسية التي يرتبط فيها المعقول بشيء ملموس.

وكان النبي ﷺ، كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب لتنبيه الغافل، وتثبيت المنتبه ومن أمثلة ذلك:

قوله في الحديث الذي رواه مسلم وغيره: «التقوى ههنا» ـ وأشار إلى صدره ثلاث مرات. فهذه الإشارة إلى الصدر في بيان حقيقة التقوى، ومحلها أبلغ كثيراً من قوله: التقوى محلها القلب، فهذه كلمة قد تمر على الكثيرين دون أن يلقوا لها سمعاً، أو يلقون سمعاً ولا يحضرون مع السمع قلباً.

ومثله حديث جابر عند مسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بأضبعيه: السبابة والوسطى وفرق بينهما».

فهذه الإشارة بأصبعيه في بيان قرب مبعثه من الساعة لها من الوقع في النفس غير ما يقوله: بعثت قرب الساعة

وكذلك حديث البخاري وغيره: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما» من حديث سهل بن سعد.

فهذه الإشارة توضح المراد من الحديث الشريف بأكثر مما تعطيه عبارة معتادة مثل: كافل اليتيم قريب من الرسول في الجنة.

ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا ثم قال له. «ألا أدلك على ملاك ذلك كله»؟ قال: بلى. قال: «كف عليك هذا» وأشار إلى

لسانه[1].

إن هذه الإشارة الحسية إلى اللسان تجعل معاذاً، وكل من حضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان، وآفاته التي تكب الناس في النار على مناخرهم.

وكل هذه الأمثلة بدت الإشارة فيها إلى جزء من كيان المعلم نفسه: صدراً، أو يداً أو لساناً.

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد، قال: مر رجل على النبي ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ. ثم مر رجل، فقال رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا، فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

١٢ - تخير أحسن الأساليب:

ومن أدب التعليم ومبادئه في السنة النبوية: تخير أفضل الطرائق وأرفق الأساليب، وأقربها إلى عقل المتعلم وقلبه، وأحسنها وقعاً في سمعه وبصره.

وذلك لتساعد المعلم على حسن توضيح ما يريد إعطاءه من العلم لتلاميذه، وحسن تثبيته في أذهانهم وأنفسهم.

ومن دَرَس السنة، وعاش في كتب الحديث، رأى من الأساليب التربوية، واستخدام الوسائل المعينة ما يحسب جمهور المشتغلين بالتربية أنه شيء غريب عن تراث الإسلام.

فقد يستخدم عليه الصلاة والسلام الطريقة الإلقائية في خطبة العامة في

(١) الحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وفي سنده كلام كثير، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

الجمع والعيدين ونحوها. فهذا ما يقتضيه المقام.

ولكنه مع هذا لا يدعها تمر خطبة القائية بحتة، بل يطعمها بعناصر تعليمية خاصة تشد الأبصار، وتجذب الانتباه وتدعو إلى التركيز.

وحسبنا أن نذكر هنا أشهر خطبه - ﷺ - وهي خطبة حجة الوداع التي ألقاها في أكبر جمع حاشد عرفته جزيرة العرب في تلك العصور في يوم النحر بمنى.

فحين أراد أن يبين لهم حرمة الدماء، والأعراض، والأموال لم يسق هذا المبدأ الخطير مساقاً تقريرياً إلقائياً كما يفعل كثير من الخطباء في خطبهم والزعماء في بياناتهم.

وإنما بدأهم بالسؤال الذي يحرك الشوق ويثير الانتباه.

يروي أبو بكرة أنه ﷺ، قعد على بعيره وأمسك بخطام البعير ثم قال: «أي يوم هذا؟». فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه. فقال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فأي شهر هذا؟» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه، فقال: «اليس بذي الحجة؟» قلنا: بلى. ثم سألهم عن البلد أيضاً سكتوا ثم بين لهم أنه البلد الحرام ثم قال: «فإن دماءكم، وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1].

قال القرطبي في شرح مسلم: سؤاله - ﷺ - عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «فإن دماءكم» الخ... مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء[2]. ومناط التشبيه في قوله: «كحرمة يومكم هذا» وما بعده: ظهوره عند السامعين، لأن اليوم والشهر والبلد كان ثابتاً في نفوسهم، مقرراً عندهم بخلاف الدماء، والأموال، والأعراض، وكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فبين لهم أن تحريم دم المسلم، وماله، وعرضه، أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم[3].

---

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان وغيرهما. ورواه البخاري في أكثر من موضع من صحيحه انظر: الفتح ج١/١٦٨.

(٢)، (٣) الفتح ١/ ١٦٨.

والمقصود هنا أنه ﷺ، لم يسرد خطبته سرداً، ولم يلق بيانه إلقاء رتيباً يثير الملل، ويبعث على النوم، بل حرك بأسئلته العقول، وأشرك المخاطبين معه فاشْرَأَبّت إليه الأعناق، ورنت له الأبصار، وأنصتت له الآذان، وفي ختام خطبته يشهدهم على أدائه الأمانة وتبليغه الرسالة، بنفس هذا الأسلوب: «ألا هل بلغت؟».. فتجاوبت معه الأصوات من كل جانب: أن نعم، قال: «اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ومن الأساليب الناجحة في التأثير والإقناع: التشبيه وضرب الأمثال بحيث يظهر المعقول في صورة المحسوس والغامض البعيد في صورة الواضح القريب.

والدارس للسنة يجدها حافلة بالعديد من التشبيهات، والأمثال التي تمثل ذُروة البلاغة البشرية وقمة الروعة الأدبية. والرسول ﷺ في هذا يقتدي بالقرآن الكريم في تشبيهاته وأمثاله.

وفي «الجامع الصغير» للسيوطي فقط نجد (٤٢) اثنين وأربعين مثلاً، وكل واحد منها وكأنما هو معلم يشرح ويوضح ويقرب.

يكفي أن أذكر نماذج قليلة منها:

«مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة: تضيء للناس وتحرق نفسها[١]!

«مثل المؤمن مثل النحلة: إن أكلت طيباً وإن وضعت طيباً، وإن وقعت على عود لم تكسره»[٢].

«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة (المترددة المتحيرة) بين الغنمين: تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع»[٣]

«مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعن

---

(١) رواه أحمد، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير أبي سبرة وقد وثق الفيض ج٥/٥١٤

(٢) رواه الطبراني والبزار عن أبي برزة وهو ضعيف، رواه الطبراني عن جندب بإسناد حسن كما قال المنذري - الفيض - ج٥/٥١٠

(٣) رواه أحمد، ومسلم عن ابن عمر - الفيض ج٥/٥١٥.

فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي »[١] .

ولم يذكر السيوطي في الجامع أمثالاً أخرى مشهورة منها ما في الصحيحين: « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة » .. الحديث. ومنها: « مثلي ومثلُ الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأتمه وأحسنه » .. الحديث. ولهذا سماه (الجامع الصغير) لأنه لم يقصد منه الاستيعاب.

ومن الأساليب المؤثرة في الأنفس والعقول كذلك: أسلوب القصة، ولذا عُني بها القرآن، وقص علينا من أنباء الرسل، وأخبار المؤمنين وصراعهم مع أهل الكفر والطغيان، ما يثبت الفؤاد، ويدفع ريب المرتابين، ويهدي الحائرين، ويزيد الذين اهتدوا هدى.

وكذلك استخدم الرسول القصة في تبيين قيم ومعاني معينة وتثبيتها مثل: بيان أثر الإخلاص في نجاة الإنسان من المهالك كما في قصة الثلاثة أصحاب الغار، ومثل بيان أثر الشكر في بقاء النعمة وكفر النعمة في زوالها كقصة الأعمى والأبرص والأقرع، ومثل بيان عاقبة الرحمة ولو كانت لحيوان أعجم مثل الكلب كما في قصة الذي سقى كلباً يلهث من شدة العطش فشكر الله له، فغفر له. إلى غير ذلك من القصص المنثورة في كتب الأحاديث وما أجدرها أن تُجمع[٢] .

١٣ ـ إثارة الانتباه بالسؤال والحوار:

وما أكثر ما استخدم الرسول المعلم، الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة من أفواه المتعلمين أو على الأقل تفتيح أذهانهم لتلقيها بعد تشوق النفوس لها، وتطلع العقول إلى معرفتها. وذلك عن طريق طرح السؤال عليهم ليجيبوا عنه إن استطاعوا أو يسمعوا الإجابة الصحيحة منه ﷺ .

---

(١) رواه أحمد، ومسلم عن جابر، والبخاري باختلاف يسير ـ الفيض ج٥/٥١٨.

(٢) حاول ذلك مشكورا منذ عدة سنوات الشيخ الصالح محمد خليل الخطيب وأعتقد أن كتابه نشر

ذكر الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم» وأخرج فيه حديث عبد الله بن عمر: «أن النبي ﷺ قال: إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها، (أي: لا في الشتاء ولا الصيف)، وإنها مثل المسلم، حدثوني: ما هي؟ قال: فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة»[1].

فها هو عليه السلام لم يلق عليهم هذه الحقيقة القاء تقريرياً: أن المسلم مثل النخلة . بل أراد أن يستثير دفائن ما عندهم ويلفتهم إلى ملاحظة ما حولهم، ويشركهم معه في البحث. وبهذا لا يصبح المتعلم مجرد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل، ويتلقى ولا يفكر. بل هو كائن حي عاقل يبحث ويفكر ويحاور ويناقش ويخطىء ويصيب.

وذكر ابن كثير في تفسيره حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أي الخلق أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟!» قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!» قالوا: نحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!»: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إليَّ إيماناً لقوم يأتون من بعدكم، ويجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها[2]».

فلم يذكر لهم الرسول - ﷺ - ما يريد بيانه لهم إلا بعد هذا الحوار الممتع، وطرح السؤال، ومناقشة الأجوبة حتى إذا تشوقت النفوس إلى معرفة الحقيقة جاءت على لسانه ﷺ ناصعة جلية.

ومما كان يستخدمه ﷺ للتشويق وإثارة الانتباه: أن يسألهم عن معاني

---

(١) انظر: البخاري مع الفتح ج١/١٥٦

(٢) عزاه ابن كثير إلى الحسن بن عرفة، ونقل عن أبي حاتم الرازي أن المغيرة بن قيس أحد رواته منكر الحديث، ولكن ذكر له شاهداً عن عمر مرفوعاً عند أبي يعلى، وابن مردوية، والحاكم وصححه مع أن فيه راوياً ضعيفاً، وروى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً. تفسير ابن كثير ج١/٤٢ ط الحلبي.

بعض الألفاظ المعروفة معانيها عندهم، فيجيبوه بما يعرفونه من معانيها المشتهرة بينهم. فإذا فعلوا بادر إلى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الجديد الذي يريده، وهو في الغالب مدلول مجازي قد لا يلتفتون إليه، ولكنه عند النبي - ﷺ - أحق أن يفهم من اللفظ.

وذلك كقوله لأصحابه يوماً: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قالوا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: «ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

ومثل ذلك قوله: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة .. ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار[2]».

ونحو هذا أن يلقي إليهم عبارة يستنكر ظاهرها ليسألوا عن المراد منها، فيأتي الجواب مصححاً المفهوم الخاطىء لها، فيتمكن المعنى من النفس فضل تمكن.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح المشهور: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». وكانت هذه كلمة متداولة في الجاهلية العربية أشبه بالمثل السائر، دلالة على الانتصار للعصبية، ودفاع كل امرىء عن قومه، على حق كانوا أو على باطل. ولأجل هذا حين قال النبي - ﷺ - هذه الكلمة وقفوا منها موقف الدهشة والاستغراب، فالإسلام قد جاء بالعدل المطلق، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين (ولا يَجْرِمنَّكم شنئان قومٍ على ألا تعدلوا)، وبرىء من العصبية بكل ألوانها، فكيف يقر الرسول الذي جاء بالهدى ودين الحق، هذه الكلمة الجاهلية؟ ولا عجب أن بادر الصحابة رضي الله عنهم بالسؤال والاستفهام قائلين: يا رسول الله ﷺ ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟!

(١) اخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود.
(٢) رواه مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة - ترغيب ٤١١٢.

فقال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذلك نصر له[1]».

فهذا تعديل أساسي في مفهوم النصرة للأخ والقريب، فإن إعانته على الظلم، وتأييده في الباطل، معناه: جره في الدنيا إلى الكوارث وفي الآخرة إلى النار، أما منعه من الظلم فهو إبعاد له عن الشيطان، وتقريب له من الرحمن، وزحزحة له عن النار، وإدناء له من الجنة. ولهذا كان هذا هو النصر الحقيقي له.

ولكن هذا المعنى الكبير لو ألقي إليهم تقريراً ما استثار اليقظة الفكرية التي واجه بها الصحابة الكلمة المشهورة، وجعلتهم يعجبون من ظاهرها، وينكرونه، ويسألونه عن المراد حتى يفهموا ويقتنعوا.

ويدخل في هذا الباب بعض العبارات التي كان يلقيها الرسول المعلم بصورة تشد الانتباه شداً كمثل قوله يوماً عند أصحابه: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! والله لا يؤمن!» هكذا بصيغة القسم، وبالتكرار الذي يفيد التأكيد أيضاً بضمير الغائب الذي لا يعود على مذكور أو أحد معروف. فالفعل المنفي حتماً لا يُعرف مَن فاعله. ولهذا قالت الصحابة حين سمعت هذه الجملة العجيبة المكررة: يا رسول الله لقد خاب وخسر! من هذا؟؟ فقال عليه صلوات الله وسلامه: «من لا يأمن جاره بوائقه»[2] ألا ما أعظم الفرق بين تأثير هذه الجملة: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» حين تذكر جملة تقريرية خبرية كالمعتاد، وبين تأثيرها حين ذكرت بالصورة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام.

والمهم بعد ذلك كله: أن يكون المعلم مؤمناً بمهنته، محباً لرسالة العلم، راغباً في الارتقاء بتلاميذه، شاعراً بأبوته لهم وبنوتهم له، حريصاً على أن يبلغ ما في نفوسهم، وأن يبلغهم ما في نفسه، متفنناً في بيان ذلك بكل طريقة ميسورة، ولو بالكلمة بشرط أن تكون مبينة مشرقة.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) نسبه المنذري في الترغيب إلى البخاري من حديث أبي شريح الخزاعي. واستدرك عليه الحافظ في الفتح أن الحديث في البخاري بغير هذه الصيغة فليراجع، وقد رواه أحمد في المسند في موضعين وليس فيه «لقد خاب وخسر»

وكذلك كان ﷺ، حريصاً على أن يبين عما في نفسه أبلغ الإبانة، وأن يُفهم عنه ما يريد، ولا يدع سامعه حتى يفهم عنه.

أعان على ذلك أسلوبه البليغ في القول الذي بلغ قمة البيان البشري، في إصابة المعنى وحسن التعبير، وموافقة المقال للمقام. كما أعانه طريقته الحسنة في الأداء التي تختلف من شخص لآخر ومن ظرف إلى ظرف.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان كلام رسول الله ﷺ، كلاماً فاصلاً يفهمه كل من يسمعه[1].

وعن أنس: أن النبي - ﷺ - كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه[2].

وكان أصحابه الذين تلقوا عنه، واقتبسوا من مشكاته، يسيرون على هديه في تعليم الخلق، وهدايتهم إلى الحق، والافتنان في الأساليب التي تعينهم على الوفاء بما يقصدون، من إنارة الألباب وتزكية الأنفس.

وأكتفي بهذه الصورة الحية من صور التعليم الذكي أبدعها فكر الصحابي المفترى عليه أبي هريرة رضي الله عنه..

فعن أبي هريرة: أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا؟ ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟ قال: في المسجد فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد فدخلنا فيه، فلم نر فيه شيئاً يقسم! فقال لهم: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يصلون، وقوماً يَقْرَؤُون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام... فقال لهم: ويحكم! فذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام[3].

فأكرم بمدرسة خرجت مثل هؤلاء العلماء المعلمين!

---

(١) رواه أبو داود ٤٨٣٩.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن - ترغيب - حديث ١٣٨، وكذا قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» إلا أن العراقي في تخريج الإحياء قال: في إسناده جهالة وانقطاع.

آثار وثمار

هذه التعاليم النبوية الهادية، التي عرضنا جملة وافرة منها حولَ العلم والتعلم والتعليم ـ ولا نزعم أننا استوعبنا كُلَّ ما جاء فيها ـ لم تكن مجردَ حبر على ورق، بل كانت لها آثارُها ونتائجُها على أرض الواقع الإسلامي، ولا عجب، فهي ليست محض كلام يقال، بل هي دينٌ يعتقد، ومنهاج يُتبع، وأوامر تُطاع، وتعليمات تنفذ، ودعوة تلبى.

وكان لهذه الدعوة إلى العلم، والإشادة به، والتنويه بأهله، والتحريض على طلبه، ثمرات جمة، وآثار واضحة في الحياة الإسلامية، منها:

١ ـ أنا وجدنا الصحابة يحرصون أبلغ الحرص على التزود من العلم، والاغتراف من منهل النبوة، مجتهدين في ذلك بكل الوسائل الميسورة لديهم. يقول عمر بن الخطاب: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد (يعني: في منطقة سكناهم) وهي من عوالي المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله ـ ﷺ ـ ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.[٢]

هكذا كانوا في حياة النبي ـ ﷺ ـ وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كان يسأل بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم عن بعض، ويرحل بعضهم إلى بعض، قاطعاً الفلوات، أو راكباً البحار، ولو من أجل حديث واحد، فيلقاه من مصدره المباشر، الذي سمعه من النبي ـ ﷺ ـ كما فعل جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره.

وكذلك مضى التابعون من بعدهم على نهجهم. وروى الدارمي بسند صحيح عن بسر بن عبد الله قال: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه[٢]

---

(١) البخاري. باب التناوب في العلم

(٢) سنن الدارمي ١/١١٤.

وعن أبي العالية قال: كنا نسمع الحديث عن الصحابة، فلا نرضى حتى نركب إليهم فنسمعه منهم[1].

وهكذا كانت سنة العلماء بعدهم: الاجتهاد في حذف الوسائط أو تقليلها، والعلو بالإسناد، لأخذ العلم من مصدره الأول أو أقرب المصادر إليه، ما استطاعوا.

وقد ذكرنا في حديثنا عن التعلم نماذج من رحلة علماء المسلمين في طلب العلم ومعاناتهم في تحقيقه ما أصبح مضرب الأمثال.

٢ - أصبحت مساجد المسلمين حيثما وجدت دوراً للعلم، ومدارس للتعليم، فما من مسجد أنشيء إلا أصبحت فيه حلقة أو أكثر، يجلس فيها طلبة العلم إلى شيوخهم في علوم الدين، أو اللغة، أو الأدب أو التاريخ، أو الإنسانية، أو غير ذلك مما يهم الناس في دينهم أو دنياهم.

وهكذا كانت المساجد أو الجوامع الإسلامية «جامعات شعبية» مفتوحة الأبواب صباحاً ومساءً. وصيفاً وشتاءً، لكل راغب في الاستفادة من مجالسها وحلقاتها، كبيراً وصغيراً رجلاً أو أمرأة، حراً أو عبداً، أبيض أو أسود، غنياً أو فقيراً، ليس لهذه الجامعة رسوم ولا نفقات ولا قيود، إلا الرغبة في العلم، والإصرار على التعليم والاستمرار فيه.

وقد تطورت هذه الجامعات الشعبية فيما بعد إلى جامعات علمية، لها أساتذتها وطلابها ورؤساؤها وأوقافها ونظامها، كما في جامعة القرويين في فاس بالمغرب، وجامعة أو جامع الزيتونة في تونس، وجامعة أو جامع الأزهر في مصر. وتعد هذه أقدم الجامعات في العالم كله. وقد ظلت هذه الجامعة محتفظة بخصيصتها الإسلامية: إنها لكل الناس، ليست محتكرة لجنس، ولا للون، ولا لطبقة، فلم يحرم منها المولى ولا الفقراء ولا المكفوفون، ونحوهم من الفئات الضعيفة بالمجتمع.

---

(١) انظر: فتح البخاري جـ١ ص ٢٠٢ ط الحلبي.

٣ ـ كان المسلمون هم أول من أنشأ المدارس النظامية للتعليم المنهجي، ولم يَعْرف التاريخ قبل المسلمين «مدرسة» بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة اليوم. مثل المدرسة النظامية وغيرها من المدارس التي أسسها الأمراء والسلاطين، وأهل الخير من المسلمين في شتى العهود الإسلامية.

٤ ـ قامت حركة تأليف واسعة في شتى العلوم. بدأت أول الأمر بالعلوم الدينية من حديث، وتفسير، وفقه، وأصول، وآداب، وزهد، وعقائد، وغيرها من كل ما يشرح الدين، ويوضح حقائقه أو يرد أباطيل خصومه.

وكانت هناك علوم أخرى لخدمة هذه العلوم، كعلوم اللغة والآداب والتاريخ ونحوها، ولهذا سموها العلوم الآلية، لأنها وسائل، والعلوم الدينية مقاصد.

ونشأت بعد ذلك علوم أخرى، جاءت نتيجة التلاقي الفكري الذي بدأ بالترجمة من تراث الأمم الأخرى، واختلاط المسلمين بغيرهم من حاملي الثقافات المختلفة، فظهرت كتب في الفلسفة، والطب، والفلك، والهندسة، والكيمياء والطبيعة، والنبات، والجغرافيا، والتصوف، والتربية وغيرها. وقد طور المسلمون ما نقلوه من هذه العلوم، وهذبوه وأضافوا إليه، وابتكروا علوماً جديدة، واكتشفوا حقائق لم تكن معروفة، وصححوا أوهاماً كانت شائعة، وسجلوا ذلك في كتبهم التي بلغت مبلغاً هائلاً، والتي أفنوا في تصنيفها أعمارهم، وإن ضاع ـ للأسف الشديد ـ أكثرها في الكوارث، والمحن التي أصابت الأمة الإسلامية على يد التتار، والصليبيين، والفرنجة في بغداد، والأندلس وغيرهما.

كانت العصور الوسطى عند الغربيين التي يسمونها «عصور الظلام» كانت بالنسبة للمسلمين عصور النور، والازدهار العلمي والحضاري.

كانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم في تلك القرون لتدوين العلم ونشره وتداوله.

كانت الجامعات الإسلامية في الأندلس، وصقلية، وغيرها هي مراكز العلم والتعليم الراقي في العالم، وكان طلاب العلم يفدون إليها من أنحاء أوربا، ليتتلمذوا على أساتذتها، ويقتبسوا من نورها.

كانت أسماء العلماء المسلمين أشهر الأسماء في دنيا المعرفة والعلم، بل هي الأسماء الوحيدة التي يتحدث عنها أهل العلم في المعاهد، والمجامع، والحلقات مثل ابن رشد، والخوارزمي، ابن الهيثم، ابن حيان، الرازي، ابن سينا، الغزالي، البيروني، الزهراوي، ابن النفيس، وغيرهم وغيرهم.

كانت المراجع العلمية الإسلامية هي المراجع العالمية في تخصصاتها المختلفة، وظلت كذلك لعدة قرون، مثل «القانون» لابن سينا، و «الحاوي» للرازي، و «الكليات» لابن رشد، وكلها في علم الطب. وكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وكتب ابن الهيثم في البصريات. وغيرها.

لقد سبق العلماء والمفكرون والمسلمون الأصلاء إلى نقد منطق أرسطو الصوري القياسي، قبل أن ينتبه إلى ذلك فلاسفة الغرب بقرون، وكتب في ذلك الإمام ابن تيمية كتابه الرائد المبتكر - بل كتابيه - في نقض المنطق الأرسطي، الذي وصفه بأنه لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد.

٥ - قرر الفقهاء - على اختلاف مذاهبهم - في ضوء الأدلة الشرعية جملة من الأحكام، يبدو بها مدى ما للعلم، وتعلمه، وتعليمه، ونموه واستمراره من قيمة وأهمية في نظر الشريعة الإسلامية.

من ذلك:

أ - أن نفقة طالب العلم واجبة على أبيه الموسر، وإن كان الطالب قادراً على كسب قوته بتجارة، أو احتراف، أو غير ذلك، لأن الاشتغال بها يقطعه عن التفرغ لطلب العلم، فوجبت نفقته على أبيه كما تجب عليه لأولاده الصغار.

ب - أن المتفرغ لطلب العلم يجوز له أن يأخذ من الزكاة، وإن كان

قوياً على الكسب، على حين أن المتفرغ للعبادة ممن يقدر على الكسب لا يجوز له أن يأخذ منها، عملاً بحديث: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سَوِيّ».

والفرق بينهما: أن العبادة لا تحتاج إلى تفرغ وانقطاع لها، ولا رهبانية في الإسلام، بخلاف العلم الذي يحتاج إلى انقطاع له حتى يحسنه، كما أن عبادة المتعبد لنفسه، أما علم المتعلم فله وللمجتمع من حوله.

جـ - أن كتب العلم لأهلها من علماء وطلاب تعتبر من الحوائج الأصلية لهم، فلا تدخل قيمتها في اعتبار الغنى الموجب للزكاة، ولا بد أن يكون النصاب المملوك فاضلاً عنها.

كما أنها تعتبر من تمام الكفاية للعالم أو لطالب العلم، فلا بد أن توفر له من النفقة أو من الزكاة أذا أعطى من الزكاة، شأنها شأن المسكن والأثاث والملبس وآلة الاحتراف للمحترف.

وإنما اعتبر علماؤنا كتب العلم من الحوائج الأصلية، لأن الحاجة الأصلية عندهم ما يدفع الهلاك عن الإنسان تحقيقاً أو تقديراً. والجهل عندهم بمنزلة الهلاك. أي هو موت أدبي.

ومن هنا قرروا أيضاً: أنه لا يلزمه بيع كتبه ليتمكن من أداء فريضة الحج، إذا لم يكن يملك من المال ما يكفيه لنفقات السفر والإقامة هناك كما أن الغارم - المدين - الذي يحكم بإفلاسه لمصلحة الدائنين، تترك له كتبه إذا كان من أهل العلم.

د - وما قرروه في باب الزكاة كذلك: أن الأصل في الزكاة ألا تنقل من إقليم إلى إقليم. ولكن في حالات لاعتبارات معينة يجوز النقل، كما إذا نقلت لطالب علم محتاج.

كما اعتبر بعضهم طالب العلم داخلاً في «سبيل الله» وبذلك اعتبروا طلب العلم ضرباً من الجهاد.

خاتمة

لقد بينت لنا الدراسةُ السابقة مجموعةً من الحقائق المهمة أبرزها:

١ ـ أن السنة المحمدية نبع سخي، ومصدر ثري، للأمة الإسلامية، دائمُ العطاء، متجددُ النفع. وليس ذلك في الناحية التشريعية فقط، كما يقال دائماً: السنة هي المصدر الثاني للتشريع، بل هي مصدر أيضاً لإرشاد الفكر، وتوجيه السلوك، وبناء الحضارة الإنسانية على أقوى الدعائم.

ولذا تكون كل محاولة للنيل من السنة أو التشكيك فيها، ليست الا

محاولة لضرب بنيان الإسلام من قواعده، وتهديماً لمقومات الحياة الاسلامية الحقة، وينتهي إلى إنكار القرآن ذاته، إذ لا يفهم القرآن بدون السنة، لأنها هي البيان النظري والعملي لكتاب الله، وقد كلف الله تعالى رسوله أن يبين للناس ما نزل إليهم. كما أن كل خدمة للسنة وتجلية لحقيقتها، هي في النهاية خدمة للقران، والإسلام، والأمة الإسلامية بلا ريب.

٢ ـ أن العلم في نظر القرآن والسنة ليس خصماً للدين، ولا ضداً للإيمان، ولم يعرف المجتمع الإسلامي ما عرفته مجتمعات أخرى من الصراع بين العلم والدين، ومن اعتبار العلم مقابلاً للإيمان. فالحقيقة أن العلم عندنا دين، والدينُ عندنا علم. والعلم في حضارتنا دليل الإيمان، وإمام العمل، وباب السعادة في الآخرة والأولى.

ولهذا قرر علماؤنا الكبار الاتصال بين الشريعة والحكمة، وموافقة صحيح المنقول لِصريح المعقول.

٣ ـ أن الإسلام لا يضيق بالعلم التجريبي، بل يحترمه ويدعو إليه، ويصنع المناخ النفسي والفكري الملائم لازدهاره. مثل: تكوين العقلية العلمية الموضوعية (التي ترفض اتباع الظن والهوى والتقليد... الخ) وإشاعة التعلم والكتابة والقراءة، والحث على تعلم لغات الآخرين عند الحاجة،

واستخدام أسلوب الإحصاء وأسلوب التخطيط لمواجهة احتمالات المستقبل. وإقرار مبدأ التجربة في شؤون الدنيا، والنزول عند رأي أهل الخبرة في مجال خبرتهم واقتباس كل علم نافع من أهله. واحترام سنن الله تعالى في الكون، والحملة على الأوهام والخرافات والمتاجرين بالكهانة والعرافة... الخ. وكل هذا أتاح للعقل أن يفكر، وللعالم أن يبحث، وللعلم أن يزدهر.

٤ - ان الاسلام - في ضوء ما جاءت به السنة - لا يفصل بين العلم والأخلاق، فالعلم وإن كان مفضلاً في ذاته، (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)، فهو يراد للعلم، والعلماء إنما يضيئون الحياة بالمعارف والأخلاق جميعا. ومن هنا ركزت السنة على أخلاقيات العلم ومسئولية العلماء، حتى لا يكونوا كعلماء بني إسرائيل الذين كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب!

٥ - ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم المفروض هنا يعني الحد الادنى الذي لا بد منه، سواء كان علم الدين، أم علم الدنيا، والحد الأدنى لعلم الدنيا يتمثل في محو الأمية التي أصبح بقاؤها وانتشارها في العالم الإسلامي، وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية يجب أن تمحى. وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا وجوب التخلص شرعاً من هذا المنكر الذي وصم أمتنا بالتخلف والعجز، في مواجهة أمم الحضارة. ولن تؤدي أمتنا رسالتها، وتثبت وجودها واستاذيتها، كما أمر الله، إلا بتعلم أبنائها جميعاً. وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

٦ - ان الاسلام - في ضوء ما فصلته السنة - قد وضع مبادىء وأسسا للتعلم والتعليم سبق بها أفضل ما يُباهي به عصرنا ومفكروه من قيم تربوية، في جانب التعلم أو التعليم. مثل مبدأ استمرار التعلم أو طلب العلم من المهد إلى اللحد.. ومبدأ التخصص في أحد العلوم.. ومبدأ التوقير للمعلم.. والرفق بالمتعلم.. والتدرج في التعليم.. ومراعاة الفروق.. والإشفاق على

المخطىء وتشجيع المحسن.. واستخدام الوسائل المُعِينة، وغير ذلك.

٧ ـ ان هذه التوجيهات وتلك التعاليم، قد آتت أكلها، في تكوين الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، ونشأ في ظلالها العقلُ المسلم المتميز، الذي يجمع بين العلم واليقين، فهو يؤمن بعالم الغيب، ويسخر بعلمه عالَم الشهادة. وبهذا ازدهرت العلومُ الكونية كما ازدهرت العلوم الدينية، وقامت نهضة علمية، تتلمذ عليها العالم كله لعدة قرون، وتركت آثاراً لازال بعضُها مكنونا إلى اليوم يحتاج إلى من يحييه ويجلو الصدأ عنه.

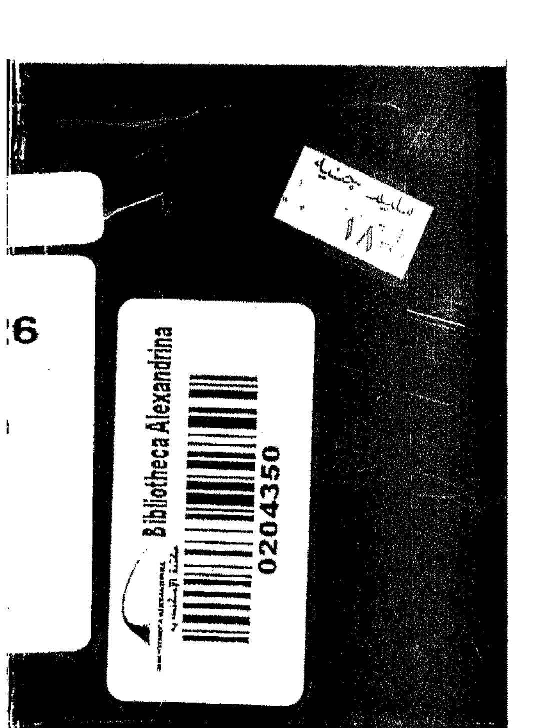
فهذا هو ديننا، وهذا هو علمنا، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الأيداع ٧٨٧ ٤ ــــ ٨٤

دار العدالة
طباعة . نشر . توزيع
١٢ ش الاخلاص - دار السلام


Bibliotheca Alexandrina
0204350